وشم على جبهة الليل

رواية

اسم الكتاب: وشم على جبهة الليل
اسم المؤلف: شيماء حسن محمد
التصنيف: رواية
الحجم: 14 - 20
عدد الصفحات: 156
سنة الإصدار: 2024
رقم الإيداع: 34110 / 2024
الترقيم الدولي: 8 – 118 – 971 – 977 - 978
تدقيق لغوي: د. هبة ماردين
تصميم غلاف: شيماء منير
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

وشم على جبهة الليل

رواية

شيماء حسن محمد

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
حقوق حلمك

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

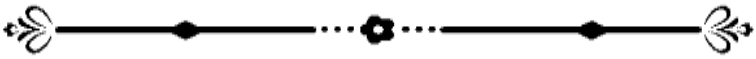

إهداء

إلى القلوب التي تجرأت على مواجهة الظلام لتصنع النور،
إلى الأرواح التي أيقنت أنّ النجاة لا تكون بالهرب، بل بالثبات أمام الرياح،
إلى كل من يدرك أنّ الحقيقة غائبة عن العين، لكنها حاضرة في أعماق الوعي،
أهدي هذه الرواية، حيث تنصهر الأوجاع في بوتقة الحكمة، وحيث يعانق الأمل رماد الخوف ليخلق حياة جديدة.

شيماء حسن محمد

****

تبدأ رحلة الليل البطيئة فوق قرية الرهوة، في خمسينيات القرن العشرين، في قلب الريف المصري، قرية مغلقة على نفسها، لا يعرف عنها أحد شيئًا سوى جيرانها في كفر الغجر. كانت المسافة بينها وبين العالم الخارجي تكاد تكون غير مرئيّة، كفاصل زمني يعزلها عن التغيرات التي تحدث في البلاد. كانت تلك القرية تعيش في زمنها الخاص، كأنها جزيرة ضائعة في بحر من العزلة، محاطة بالجبال التي تشبه الجدران العالية التي تحجب ما وراءها.

الليل في الرهوة كان يتسلل ببطءٍ شديدٍ، كأنّه يمدّ عباءته الثقيلة على كلّ شيء. الجدران المشققة التي طوتها السنين صارت شاهدًا صامتًا على حكايات لم تُحكَ بعد، حكايات دفنت تحت الأتربة والألم. كان المكان غارقًا في صمتٍ مريبٍ، يحمل معه سرًا خفيًا لا يبوح به سوى الهواء البارد الذي يسري بين الأزقة الضيقة.

في الزوايا المظلمة من البيوت المتداعية، كانت العيون تترقب، تبحث عن إجابة لسؤال لم يُطرح بعد، وعن نجاةٍ لا تعرف طريقها. همسات خافتة تنبض بين الجدران، تحمل رائحة الترقب وتتكثف في الهواء مع كلّ نفس. كان الجو مشحونًا بشيءٍ غير مرئيّ، لكنّه محسوسٌ بقوةٍ، وكأنّ هناك عينًا تراقبهم في الظلام، تنتظر اللحظة المناسبة لتكشف عن المستور.

هكذا، كانت ليالي الرهوة اختبارًا صامتًا لإرادة البشر، حيث يتوقف الزمن في لحظات تصبح فيها الأقدار جزءًا من حكاية خفية، تُنسج بخيوطٍ من الخيانة، الندم، والأحلام التي لم تكتمل. وعندما يولد الفجر، سيكشف الضوء كلّ شيء، ولن يعود أحد كما كان."

****

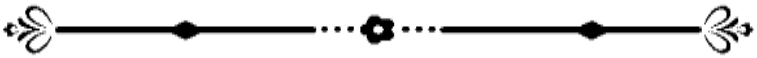

نبوءة برهان

تسللت غجرية نقش على وجهها وشومٌ تحكي حكايات زمن غابر، وكأنّها جزءٌ من الليل نفسه، تخترق صمت القرية بخطواتها التي تهز الأرض تحتها، وكأنّها شعاع من الماضي يعود ليغزو الحاضر. خلخالها يرنّ في صمت الليل، صوتٌ يتردّدُ في أرجاء القرية كأنّما يوقظها من سباتٍ طويلٍ. عيون الرجال تَتتبّعُ خطواتها في صمت، ولا أحد يستطيع أن يهرب من سحرها. تتنقل بين الدور، تفوح منها رائحة الأرض وهدوء البحر، تقرأ الودع والطالع بعينين تحملان أسرارًا لا تفصح عنها.

كلما مرت على رجل، يتمايل قلبه تحت وقع كلماتها الموشومة بالوعد، كلمات تحمل في طياتها الغنج والوعود: 'أبين زين، وأراضي الزين، ومهما يقول كلامه أمر.. وأضل تحت أقدامه، وأزيده عشق طول العمر.'

ولكن تلك الكلمات، رغم رقتها، كانت تُشعل نارًا لا تُطفأ في صدور من يسمعونها، فتترك خلفها وعدًا خفيًا، وأملًا مشوهًا، وتاريخًا من الغرام لا ينتهي."

تلهث خلفها القلوب، ويتساقط تحت أقدامها رجال بشوارب،

فإذا حضرت غزل بات العقل عن الرأس غائبًا.

عيناها تخلقان للأحجار أفواهًا، وتنصب في القلب أفراحًا ولياليَ ملاح.

إن حضرت، هجر الرجال بيوتهم، واتخذوا من المصاطب مجلسًا،

فروا من العيال وهمومهم، حتى العيال باتوا ينتظرون سماع دفها، فحين تأتي تصل بُشراها قبلها، دفًا تقرعه يوم اكتمال البدر، فترسل الرياح صداها إلى القرية قبل وصولها كتعاويذ تجعل أعتى الرجال يهذي كالصبيان، تصك النساء وجوههن، ويشققنَّ أثوابهنَّ خوفًا من الغجرية التي تأتي فتسرق قلوب رجالهنَّ، وتوسمهم بعشقها؛ تعلمت من حياة البرية الجرأة وفن الدلال على الرجال، هذا الفن الذي جهلنه بفعل حياة الذل التي عانين منها صبايا في بيوت ذويهم، فالبنت في شرعهم جارية لسيدها، وعاء، أرض تُزرع، ويحصد منها الذرية.

يمشين منكبات الوجوه من تتجرأ وترفع وجهها، أو يرتفع صوتها، يُحفر لها قبر، توأد ويهال عليها الرماد، وتُنسى كأنّ لم تكن.

تلف غزل البيوت، وتسحب الرجال أمام نسائهم، لا يجرؤن على منعهم من اتباعها، فقد اعتدن على السمع والطاعة.

هي تعلم ذلك فتتمادى في كيدها وإغاظتهن.

كل رجل تناله، تخدش بظفرها فوق جبهته فتوسمه بها كما وسمت قلبه، فيتباهى بينهم بأنه فعل.

حتى بات كل الرجال موسومين بها، كلما رأى أحدهم وسم الآخر احترق بنار الغيرة، فكم تمنى كلّ واحدٍ منهم أن تكون له وحده، لا ينالها غيره.

ولكنّه يؤثر الصمت، فمن يفتعل الشغب يفقدها ولا يتذوق شهدها مرة أخرى، تلك هي قواعدها.

جميعهم لديها سواء، أفضلهم من يمنحها قطعة أو اثنين من الذهب، وأدناهم من يهديها الفضة، ولكنّه يبقى عطاء لن تهدره أو تنأى عن أخذه وإعطاء مقابلًا له، وعند تمام البدر يأتي موعد الرحيل، فترفع دفها لتقرعه..

تحمل بزنبيلها هدايا رحيلها، ذهبًا وفضةً وقلوبًا عاشقةً.

ولكن تلك المرة أطالت المكوث حتى مرّ عرس ابن العمدة لينوبها من الحظ جانب ومن الرجال المزيد، فقد أقام العمدة لابنه عرسًا كبيرًا انغمس أهل القرية في ملذاته من مأكل ومشرب وغازيات، رغم زيجته من شوق ابنة سعاد ومعتمد الهارب، فقد سلبته شوق عقله حين كانت تسير بجمالها الفتّان ترتدي ثوبَها البرتقالي ذا النقوش العنابية، يتراقص حول جسدها الممشوق، جدائلها السوداء تتمايل مع كلّ خطوة، وعيناها الناعستان تخترقان الفضاء. لا يجرؤ أحد من رجال القرية على التحديق فيها علانية، فهم يعرفون قصتها معه.

"سألتها وصيفة الدلالة ذات يوم وهي تجالس أمها سعاد بسخرية: "ماذا تنتظرين من فارس يا شوق؟ ابن العمدة لن يترك خلفه قصره وماله لأجلك."

لكنّ شوق كانت تثق في قلبها وتعلم أنّ فارس سيصبح لها يومًا ما، كلما ارتفع صوت خلخالها الفضي، تذكرت اللحظة التي جلس فيها فارس تحت قدميها ولفّ الخلخال حول ساقها قائلًا: "قلبي لا ينبض إلا باسمك."
كان في صوته وقتها دفء الحبّ ونار العشق، وكان قلبها ينبض بالفرحة والهيام. تُمسك طرف ملاءتها بإحكام، وكأنّها تُمسك بذكريات ذلك اليوم.
الجميع يعرف أن ابن العمدة فارس وقع في حبّ تلك الفتاة المعدمة.
أما زبيدة، أم فارس، فكانت تشتعل بنار الغضب، فكيف لابنها الوحيد أن يرتبط بابنة رجل ترك بيته وهجره امرأته من أجل الغازيات؟

ولكنّ فارس الشاب المتمرّد لم يكترث لكلّ تلك الهمسات، كان سيدًا لنفسه، يعيش بلا قيود، يتبع قلبه دون تردد. "سأتخذها زوجةً، وليفعل العالم ما يشاء!"، هكذا كان يقول دائمًا. ومع الوقت، خضعت العائلة لرغبته.
وها هي ليلة زفافهما، تجمعت القرية تحت أضواء النجوم، وزغاريد النساء تعلو، والعروسان صار الحبّ كأْسهما، والعشق زادهما. تمّ طقس الدخلة كما ينبغي، وخرجت شوق من عرسها كالملكة المنتصرة، تبيت ليلتها الأولى بين ذراعيّ فارسها المغوار.

أغمضت سعاد عينيها في تلك اللحظة وسمعت ضحكات النساء حولها، لكنّ روحها كانت مشغولة بأملٍ جديدٍ؛ ربما، فقط ربما، تستعيد الأمل في قلبها، وتعيش ابنتها حلمها لتعوضها الحياة ما سلبته منها.

وبعد ما مرّ حفل العرس بالأفراح والليالي الملاح، همت غزل بالرحيل، ولكنّها سقطت فاقدة وعيها ليتهافت عليها الجميع، الكل يريد أن يحملها فوق ذراعيه لعلّها تمنحه قدرًا إضافيًا حين تفيق..

ولكنهم فشلوا في إعادتها إلى وعيها، فاستعانوا بالنساء اللاتي تمنين لو أنها فقدت حياتها لا وعيها فقط.

أخذنها إلى أقصى القرية، إلى العجوز برهان، والتي شهدت بدء الحياة في القرية، يظنها البعض من نساء الجنّ لطول عمرها وتكهنها، حتى العمدة وخفره يحتكمون لها ويصدقونها الرأي.

وضعنها بقربها، فأشارت إلى بطنها، وقالت لهم: ستلد شيطانًا رجيمًا، اقتلِعوه من جذوره، هو ومن منحها نطفته.. وإلا ستسوء عاقبتكم وتنسلخ عنكم جلودكم.

شهقن، ضربن على صدورهن، أهلن التراب على رؤوسهن.

كيف سيعلمن والده، فجميع رجالهن واضعون، وكلهم موسوم.

انتشر الخبر كالنار في الهشيم، ارتعدت الأوصال من نبوءة برهان فقولها يقين، وأمرها حد سكين.

كل من تباهى في الأمس، يخبئ اليوم وجهه في الطين.

عادوا إلى برهان يسألونها البرهان، كيف يعلمون من وضع، وكلٌ أتى ووضع من خيره الثمين.

منهم من التزم الصمت ومنهم من ادعى الفشل، ومنهم من أغلق بابه عليه، والبعض فرّ هاربًا.

فأتتهم برهان بالخبر، ستبقى لديهم حتى تضع وزرها، فإن تركوها سيأتيهم ولدها طاغيًا وإن قتلوها سيصير دمها لعنة في الأولين والآخرين.

سألتها امرأة من القرية:

_لمَ سنبقى عليه وهو عدو لعين؟

أجابتها برهان:

_يقتل بعيدًا عن وعائه وإلا انقلبت عليكم لعنته وزاد الشر شرورًا...

فأطاعوها وتحفظوا على الغجرية يرتقبون يوم ولادتها بصبر عظيم.

في تلك القرية الصغيرة، كانت الأجواء مشحونة بقلقٍ غامضٍ، كغيمةٍ مثقلةٍ بالأمطار التي تلوح في الأفق. لم تكن الأعين وحدها هي التي رصدت هذا التوتر، بل كانت القلوب تنبض بالخوف والريبة. سكن الخوف في قلوب النسوة، وتسلل إلى نفوس الرجال، حتى غدا الجميع يتحدث عن نبوءة العجوز برهان، وكأنّها شبح يترصدهم في كل زاوية. كانت القرية تعيش في حالة من الترقب والانتظار، يتبادلون النظرات المشبوهة، غير متأكدين من أي منهم سيكون له نصيب في اللعنة أو المجد.

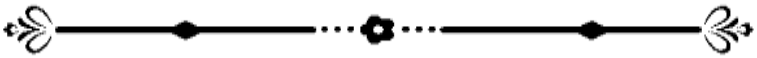

وفي تلك الأثناء، كانت العجوز برهان تجلس في كوخها، تفكر فيما قد يحمله القدر. كانت قد شهدت الكثير من المآسي والأفراح، وكانت تدرك أنّ كلّ لحظة تحمل في طياتها شبحًا من الغموض. استرجعت ذكرياتها...

....

«قبل ثمانين عامًا»

رجل فارع الطول يمشي في ثبات يحمل على كتفه عصًا خشبية من عرف شجرة طويلة مثبت بطرفها البعيد كيس كبير شفاف يحوي بداخله حلوى غزل البنات الوردية المصنوعة من السكر..

وبيده الأخرى يحمل (زمارة) معلقة بخيط سميك في عنقه..

ينفخ فيها بأعتى قوته محركًا فمه مع الهواء الخارج ليصنع نغمته المحببة لدى الأطفال والكبار..

فيخرج إليه الأطفال يتهافتون، يركضون وكل منهم بيده (شلن)، يتمنى أن يصل قبل الآخر..

من يتعثر منهم ويسقط ينهض مسرعًا ليلحق بالباقين.

يتزاحمون من حوله، يستكمل نفخًا في زمارته ويحرك عليها فمه، فيتراقصون من حوله على نغماته..

يتوقف ويترك الزمارة فتسقط على صدره تتدلى في خيطها..

يأخذ منهم عملاتهم الصغيرة، ويفتح كيسه ويخرج لهم الحلوى يوزع عليهم منها ويخرج كيس النقود خاصته ليضع به الرزق الجديد..

يأخذ الأطفال حلواهم ويعودون فرحين يتراقصون..

يعيد البائع كيس النقود بالصديري الداخلي لملابسه، ويرفع العصا الخشبية على كتفه من جديد.

يتحرك مرة أخرى لوجهة مختلفة يرفع زمارته، ويبدأ في عزف نغمته المعروفة على آذان المنازل ليركض من داخلها الأطفال كالفراشات المتطايرة، وكأنّ صوت مزماره قابلة والبيوت أرحام..

إحداهن تقف مختبئة خلف نافذتها، تشاهد الجميع، يركضون ويتراقصون من حوله يضحكون ويمرحون..

تلمع عيناها بحلم قديم مرَّ عليه عقدان من الزمن، حيث كانت ما تزال فتاة لم تبلغ الحلم بعد، زهرة بتول ما زالت أوراقها تحتضن بعضها، لم تتفتح بعد أو يفوح عبيرها، بجديلتين طويلتين تتدليان على كتفيها، وثوب أحمر بقصة على الصدر وكورنيش على الذيل، تجري حافية القدمين بين من هم في مثل عمرها، فتتلطخ قدمها بالطين.. فتجلس على الأرض غير

مكترثة لاتساخ ملابسها ومعها باقي البنات يصنعن عرائس من الطين، ويُلبسنها أوراق علب التبغ البراقة..

بيت به تنور صغير، تصطنع الجدية وتقوم بتمثيل أدوار نساء بالغات، تخبز مع رفيقاتها الطين، ويشكلنه أقراصًا على شكل الخبز، ويضعنه في التنور، ألعاب بالية وأحلام عبثية.
في ذلك اليوم سحبها والدها من بين قريناتها، يقبض على يدها ويجرها من خلفه، فتتعثر في جلبابها المتسخ وتنهض من جديد، عاد بها إلى المنزل فحممتها أمها وألبستها ثوبًا نظيفًا، وأعطتها قطعة حلوى..

ابتسمت لأمها، فأشاحت بوجهها عنها، وودعتها دون أن تنظر إليها ليأخذها أبوها من جديد إلى مندرة المنزل الكبيرة، لترى رجلًا لم تنتبه لوجوده حين أعادها والدها للمنزل.. لم تلاحظه إلا حين قربها والدها منه وألقاها بين يديه بإحداهما موس حديدي مسنون..

ينتظرها واجمًا، فانتفض قلبها خلف ضلوعها على إثر رؤيتها المشرط في يده، حتى كاد يقفز خارج جسدها، حيل وجهها باهتًا مصفرًا كورقة أسقطها الخريف.

قبض عليها والدها فأحكم تقييدها وأبعد ساقيها عن بعضهما، فتبولت بدون إرادتها خوفًا من المجهول لها والبادي على أوجه المحيطين بها. تحاول ضم ساقيها بلا فائدة فقبضة والدها كفك السبع حين يقبض على فريسته..

تصرخ بصوتها الرقيق بأعلى طاقتها وتنادي على أمها لتخلصها مما يفعلونه، ترفع رأسها لتتطلع على ما ينوون فعله بها فينهرها الأب ويثبتها في الأرض ليعيق حركتها، أسرع الرجل وقطع قطعة من جسدها لا تتعدى عقلة إصبعها الصغير.

لتسيل الدماء منها ينبوعًا، فابتسم والدها وحث الرجل العابس أن يزيد ليطمئن قلبه، ففعل، تلطخ ثوبها بالدماء، لم تكف عن الصراخ حتى بُحَّ صوتها، فغطى عليه صوت زغاريد أمها التي دخلت إليهم بعصير الورد الأحمر، طالعتها وصمتت عن صراخها، وتحجرت الدموع في عينها.

في تلك اللحظة مرَّ بائع غزل البنات كانت زمارته ترن في أذنها، وصارت الذكرى تطاردها في كل مرة تسمعها فيها.
وبعد تلك الواقعة بعام، أتاها مرة أخرى وناداها من بين الأخريات. أدخلها إلى بيتها، همت إليها أمها فرحة مبتسمة، أخذتها إلى غرفتها، فكت جديلتيها وحممتها، أخرجت لها ثوبًا جديدًا كانت تحتفظ به بين ملابسها، هندمتها، ومشطت شعرها، أغرقته بزيت عطري وفردته خلف ظهرها..

أخرجت مكحلتها النحاسية ورسمت عينيها بالكحل، ثم لونت شفتيها، ووضعت الكثير من الحمرة فوق وجنتيها..
تبكي الفتاة لأمها، تريد أن تذهب للعب مع صديقاتها، فتصك الأم وجنتها لتصمت ولتزداد احمرارًا..

كان الوقت قد مرّ حتى ولى النهار وجنّ الليل، أضيئت الأنوار، وارتفع صوت الزغاريد..

ارتعدت أوصالها وانتفض قلبها في صدرها من جديد، أسقطت يديها لا إراديًا وضعتها بين ساقيها حيث شعرت بالألم الذي ينتابها كلما زارتها الذكرى.

حضر رجل وعاينها، يكبرها بعقود كجد وحفيدته، خريف يسعى ليستمد خضارها..

مرت الليالي حتى أتى اليوم المعهود، عروس بفستان الزفاف وتاج الفل يعلو رأسها، طبول الفرح تدق والدفوف تُقرع، استبدل الأب ابنته بفدان أرض وجاموسة..

وآه من المصادفة التي جعلتهم يزفونها على صوت المزمار البلدي،

سالت الدماء مرة أخرى لتوشم صفحتها البيضاء بوشم الشرف، لتحلق طفولتها مودعة وتأذن بمولد امرأة شاخت قبل أوانها، أما أبوها فاطمأن قلبه وارتاح باله، فقد سقط من على كتفيه هم إحدى بناته، ليسعى إلى تستير التي تليها..

أخذتها الذكرى إلى بعد عام من زواجها، حيث صدى زمارة غزل البنات يدوي في الأرجاء، فتقرع قلبها طبول الحنين لطفولتها الضائعة، حتى عصفت الأفكار برأسها، تنظر خلفها، تبحث عنه، يصل لأذنها صوت سعاله، يرتفع صوت زمارة بائع غزل البنات على صوت السعال، تعود لتنظر من خلف النافذة، يناديها لتناوله كوب ماء، تركض إليه، فتعيدها الزمارة..
اقتربت خطوات البائع، ارتفع صوت زمارته، وارتفع صوت السعال والاستجداء، عادت، ملأت الكوز بالماء، هرعت إليه، وقفت على باب الغرفة تنظر إليه، يستجديها بيده أن تسرع إليه بالماء، متسمرة في مكانها، زاد سعاله إلى أن تحشرج صوته، اقتربت منه، يمد يده إليها، يملأ صوت الزمارة أذنيها.. فرجعت خطوة للخلف، تصارع روحه صراع البقاء تنظر إليه فتتذكره بجسده الواهن البغيض ينتزع من شجرتها فرعًا مخضرًا يزرعه في أرضه الجدباء، لتعيد حرثًا قد ولى..

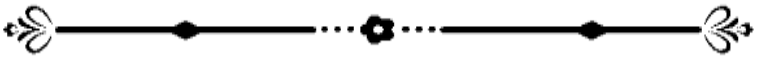

باغتتها قشعريرة مفاجئة حين تذكرت نفسها وهي مقيدة من أوصالها فوق الفراش، ويباشر هو عليها طقوسه السادية الشاذة ويقنعها أن الألم سيمنحها اللذة.

بعد دقائق على شفير الموت، تسقط يده ويصمت سعاله ويزداد صوت الزمارة، اقتربت منه ووضعت كفها أمام أنفه فلم تستشعر نفسًا يخرج، انحنت تقرب أذنها فوق صدره، فلم تسمع دقات قلبه، سمعت دقات على الباب، هرعت وفتحت الباب لتجد بائع غزل البنات يعطيها قطعة حلوى كما طلبت منه أن يفعل كلما مر.

متجمدة في مكانها وفي عينيها فرح يختبئ بين نظرات الخوف، متعرقة يفور العرق من رأسها كدوارة الماء التي تسقي الأرض

تمتمت متلعثمة بجملة متفرقة مبهمة:

_ لقد مات العجوز!

.....

بينما كانت برهان غارقة في بحر الذكرى، دخلت عليها نادية، تحمل طبقًا من الخبز وحليب الماعز، وفي عينيها يتراقص القلق كأنه يجوب بين زوايا الكوخ.

سألتها نادية بلهجة مرتعشة: "هل تعتقدين أنّ تلك الغجرية ستحمل الشر حقًا؟"

أجابت برهان بصوتٍ هادئ وموقر: "الأمر لا يتعلق بما أعتقد، بل بما شعرت به عندما رأيت تلك المرأة. لقد رأيت أكثر مما تعتقدين."

حاولت نادية تهدئة نفسها، لكنها لم تستطع أن تخفي ذلك الثقل الذي استقر على قلبها. "وماذا يجب أن نفعل؟ هل علينا أن ننتظر تلك النبوءة؟"

ردت برهان، "نحن ننتظر، ولكن علينا أيضًا أن نكون حذرين. القوة تكمن في الجماعة، ولكن إذا تفككت تلك الجماعة، سيظهر الشر بشكلٍ مختلف."

وفي تلك اللحظة، غابت نادية عن الوعي، وتراجعت إلى الخلف. هرعت برهان إليها، مشدودةً بعواطف الأمومة، وحاولت أن تردها إلى وعيها.

بعد لحظات من الصمت الثقيل، استرجعت نادية وعيها لترى عيون برهان تحمل همًا عميقًا. سألتها بصوتٍ خافت: "ماذا حدث؟"

فأجابتها برهان بوجهٍ عابس: "بذرة مبروك تنمو في أحشائك."

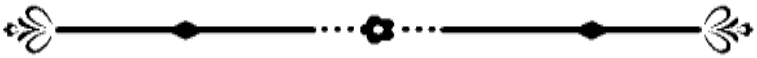

انهارت نادية في بكاءٍ ونحيبٍ مريرٍ، تجري دموعها كالسيل، تردد: "أحمل بذور شيطان رجيم، أنا أيضًا أحمل شرًا مثل الغجرية."

هدأت برهان من مصيبتها، وضعت يدها على كتف نادية بحنان. "لعلّ الخير يكمن في الشر، يابْنتي. هذا حكم القدر وليس لك ذنب به. لم تشاركي مبروك الذنب، ولم تبيعي نفسك كما فعلت الغجرية. الوضع لا يتشابه يابْنتي، اصبري وانتظري ما ستكشفه لك الأيام."
كانت في حالة من الإعياء جعلتها غير متزنة، فمالت على جنبها تبكي على مصيبتها.

....

«قبل شهرين»

كانت قدرية الخبازة مغبونة تفكر في ابنتها نادية، فتاة يتيمة هادئة، كالورد النديّ، ملامحها رقيقة كبراءة الأطفال، تمتلك ضحكة خجولة تحول وجهها فجأة إلى نار متقدة.
لا تخطو خطوة خارج بيتها البسيط إلا بملبس واسع فضفاض أعطته إحدى السيدات لأمها ذات مرة بعد أن خبزت لها، وتغطي رأسها بالشال، لا تُظهر منه شعرها، وكأنّها أخذت على خصلاتها عهدًا لا يظهرن لغريب.

اعتادت ارتداء شال أزرق، تحبه، كانت تتمنى لو أن تتيح لها أمها استبداله بآخر أسود، لكن أمها ترفض وتعنفها.
دائمًا ما تخبرها أنّها مازالت فتاة شابة، فعلى من سترتدي السواد؟
ثم تبادرها ساخرة أماتت أمك، أم أصبحتِ أرملة؟
حتى صارت نادية لاتقاء جدلها وسخريتها منها تستبدل الشال الأسود بذلك الأزرق.

تتمنى أمها لو تتصرف مثل من هم في عمرها من أهل القرية وترتدي أحمر وأصفر وأخضر وتتغندر مثل البنات، أو تلبس جلبابًا بسفرة منقوش وبكورنيش على الذيل..
فقد يراها أحد الأعيان، يكايلها بالذهب فتريحها من تعب الخبيز للناس

تحدث نفسها: "مليحة يابْنتي وتخفين جمالك، لا تضعين حمرة في شفاهك رغم أنها لا تحتاج ولكن الحمرة زينة تجعل الفتيات فاتنات، ولا تكتحلين ليظهر جمال عينك وخضارها"
كل يوم تتقاذفان معًا الحديث كالبارود
تخبرها ابنتها:
"جسمي ليس مشاعًا يا أمي لكل مار، فأنا لست عروس حلاوة للعرض. والرجال في قريتنا أنجاس يركضون خلف الغازيات أما نساؤهم فليسوا

سوى خادمات لبيوتهم ووعاء لأولادهم، لن أفكر في الزواج إلا إذا انصلح حالهم"

أنهكتها الفتاة رفضًا وفقدت فيها الرجاء، فأعرضت عنها راجية أن تعود وترضخ لها في النهاية.

كل يوم قبل الفجر تستيقظ قدرية وتذهب على باب الله، تخبز لأعيان الناحية.

تجهزت لتذهب إلى بيت العمدة، فقد جاء الغفير مرزوق الليلة الماضية وأخذها عجنت ولفت العجين، ثم أعادها مرة أخرى إلى بيتها وصتها زبيدة زوجة العمدة أن تحضر إلى الدوار باكرًا، لكي تبدأ الخبيز قبل شروق الشمس، تتحسر على حالها، تنعى حظها القليل من الجمال.

دائمًا تقول لنفسها: لو أنني تزوجت العمدة بدلًا من زبيدة وجعلته يأتي لي بالخدم كما يأتي بهم إليها.

تقابلها نساء القرية يسحبن أنعامهن، جلهن إلى بعض الفقراء، رائحتهن خير من حلبهن الأبقار، وصنعهن الجبن الفلاحي القريش وتعليقها في الحصر حتى تجهز، يربين الدجاجات والبط والحمام ليأكلن من إنتاجها.

وليس أيضًا كلّ أهل القرية أغنياء لديهم خير، فهناك الفقراء الذين يسترزقون على الله ومنهم قدرية...

أغذَّت في السير، حتى وصلت إلى دوار العمدة، رمت السلام على الغفير حارس الباب ودخلت.

دوار العمدة مفتوح دائمًا، لا يغلقونه أبدًا والغفر ليلًا ونهارًا يتناوبون على حراسته.

كشفت عن العجين فوجدته قد تخمر وملأ الآجرّ الكبير، فقامت بتقليبه، ثمّ دخلت لتحمية التنور وتجهيزه.

كان جميع من في الدوار قد استيقظ في ذلك الوقت.

الكلافون؛ أحدهم دخل إلى الحظيرة ينظف روث البهائم، واثنان غيرهم سحبوا البقر ليسرحوه إلى الحقل بعدما انتهت مسعدة الخادمة من حلبها، ودخلت إلى غرفة المعيشة التي تحضر فيها القشدة والزبد.

بعد ما انتهت من الألبان وتجهيزاتها أعدت الفطور للعمدة وزوجته الحاجة زبيدة، قشدة، وزبد، وعسل نحل، وبيض..

كانت قدرية قد بدأت الخبز، فأخذت منها مسعدة رغيفين مع الطعام ودخلت تناول قدرية باقي العجين وتساعدها..

وبعدما أنهى العمدة فطوره، بدلت الحاجة زبيدة مع مسعدة، وأمرتها أن تذهب إلى قن الطيور وتذبح ديكًا وذكرَ بطٍ للعشاء.

تتابع قدرية تلك الأمور في صمت حتى انتهت من عملها وقبضت أجرتها، ثم أعطتها الحاجة زبيدة رغيفيّ خبز وفطيرة، وسلطانية قشدة.

قبلت يدها وتركت الدوار متخذة طريق عودتها إلى بيتها، تسرح وتتخيل نفسها مكان زبيدة لتستحوذ هي على العمدة والدوار والخير، وتتكبر على مسعدة التي تعيش معهم وتغدق عليها زبيدة من المال والطعام والجلاليب.

تتساءل بإنكار: "لمَ لا يكون العمدة لي أنا؟

حتى إنّ بيته القبلي يشهد على غرامنا، ويظهر فيه كم أنه يهواني ويشتهي جسمي الفائر، فقد شابت زبيدة وكرمش جلدها رغم العز المنعمة فيه، إلى متى سيصبح لقاؤنا في النور، وأصير زوجة له ولي الحق كما لها؟"

مرت على بيت وصيفة الدلالة وصتها واستحلفتها أن توقع بعريس لابنتها، على أن يكون من الأعيان.

وتعيدها عليها: "من الأعيان يا وصيفة".

البنت حلوة ومليحة وجهها عربي ينير ظلام الليل.

تضحك وصيفة وتخبرها أنّ ابنتها صامتة دائمًا وعابسة كالبومة، فتجيبها قدرية بفخر:

"حلوة وبيضاء ومليحة وعيناها خضر"

أوقعي لها عريسًا مليحًا والخير حين يأتي سيعم على الجميع وعلى من كان السبب، أقصدك أنتِ.. ثم تنهي معها الحديث وتتركها مودعة إياها.

تصل إلى دارها، تأخذ منها نادية الكيس، تأخذ رغيف خبز، وتحضر قطعة جبن قديمة من "البلاص" وتضعها على الطبلية.

تلقي قدرية بعينيها من بعيد على ابنتها، وتصفن في جمالها وبياضها، وتنظر إلى مفاتنها وعينيها، فتتقوس شفتاها حزنًا على فقرها وحظها التعيس.
فكرت في فكرة جهنمية، ستذهب للشيخ مبروك ليعمل لها جلب عريس..

ثم لمعت في عينها فكرة أجن من الأولى، ستطلب من الشيخ مبروك يوقع لها فارس ابن العمدة.

أقسمت أن لن يمر اليوم إلا والموضوع منتهٍ، ثم ارتدت ملابس نظيفة وتعطرت وركضت إليه، أخذت الفطيرة الطازجة، وسلطانية القشدة معها، دخلت عليه ووضعت الطعام أمامه وقالت له:
أريدك في خبر وإن أتممته سيغمرك خيره.
أجابها:
تريدين أن تزوجي ابنتك لعريس من الأعيان، وتريدين مني عملًا يجلبه لها..
ضحكت وغمزت له، قالت: "مكشوف عنك الحجاب" أعلم ذلك من أيام كنت آتيك في حياة زوجي، وكنت تعلم أمري قبل أن أخبرك به.
أوضحت الأمر وأخبرته بالذي عليه العين والطلب..
مد يده وقرب إليه الفطير والقشدة، وأخذ في التهامهم كالمحروم الذي لم يرَ طعامًا في حياته.

ثم اقترب منها حتى صار ملتصقًا بها وأطعمها في فمها، وضحك ضحكة خبيثة وغمز لها، بادلته الضحك وسكتت سكوت الرضا والقبول، رضخت ودفعت ثمن العمل..

كل من يذهب إليه في مسألة فعليه دفع المقابل إما مالًا أو غيره.. فالمعدمون مثل قدرية يدفعون مدفوعات معنوية يتعدل بها مزاج الشيخ مبروك.

أنهى الأمر معها، ثم جلس وأتم عمل التعويذة ولفها كالحجاب، وأعطاها زجاجة ترياق.

أخذتهما منه وعادت ألبست التعويذة لابنتها غصبًا.

وحذرتها من خلعها، وقطرت لها من زجاجة الترياق في الطعام بدون علمها..

الفتاة غاضبة من الأمر فعنفتها الأم قائلة:

_هذا ما سوف ينصفك، لن يتزوج فارس ابن العمدة بغيرك.

إما أنت أو القبر!

مر ما يقارب الشهر ولم يتغير شيء سوى أن اقترب عرس فارس ابن العمدة وشوق بنت معتمد، المرأة ستجن، تحرق الغيرة كبدها، تندب حظها مستنكرة أتتزوج شوق السوداء من الفارس وابنتها حالها واقف!

حتى أتت ليلة الزفاف فذهبت مرة أخرى للرجل، أخبرها أنّ هناك سحرًا قد صنع لها وهو ما يصعب الأمر على الأسياد، فمن صنع لها السحر جعل جنيًا ملازمًا لها يحجبها عن أعين الرجال.

أخبرها أنّ الحل موجود ولكنّه صعب، إن قبلت سيشفي الفتاة مما أصابها وأوقف حالها، ويجلب الفارس من عرسه راكضًا مشتهيًا.

فقط جلسة لإخراج الجن وإبعاده عنها.. ولكن لتتحمل الفتاة ولتساعديني في السيطرة عليها.

دعته إلى بيتها بعد ما حارت في أخذ ابنتها إليه، أغذّا في السير ليتم المراد قبل أن يدخل الفارس على عروسه، وفي الطريق يطمئنها ويخبرها أنها ستنال المراد..

وصلا فقام بتحضير مزيج من الدواء، أخبر قدرية أنه مزيج للتطهير وإبعاد الجن الآخرين ليتمكن هو من الجني الذي يتلبس ابنتها وعلى الجميع تجرعه..

أذعنت وشربت المزيج، وسقت ابنتها بالإكراه..

بعد ساعة استفاقت قدرية مفزوعة، رأته يعتلي ابنتها فاقدة الوعي ويغتصبها كوحش ينهش في فريسته فهاجمته بأعتى قوتها حتى فرّ هاربًا بعد ما ضربها على رأسها أفقدها الوعي.

اندلع حريق بالبيت؛ فتصاعد الدخان الكثيف في سماء القرية، يتلوه صوت ألسنة اللهب وهي تلتهم جدران بيت نادية كوحش جائع. ارتفعت صرخاتها، مختلطة بأصوات النيران المتراقصة حولها. جسدها كان متيبسًا من الرعب، لا تعرف كيف تتحرك، ولا إلى أين تهرب. حاولت إيقاظ والدتها، لكنّها كانت غائبة عن الوعي، غارقة في دخان كثيف.

"يا ناس! النار أكلت البيت!" صرخ أحد الرجال، محاولًا اقتحام النيران، لكن ألسنتها صدّته بقسوة.

في الخارج، تجمع أهل القرية، يترددون بين النجدة والخوف. تقدم أحدهم بشجاعة، واقتحم النار رغم صيحات النساء. كان وجهه مغطى بالعرق والدخان، لكنّه أصرّ على دخول البيت.

في الداخل، كانت نادية تحتضن نفسها، عيناها مليئتان بالخوف والدموع. "أمي! استيقظي، أرجوكِ!" همست بصوت متقطع، لكن الأم لم تتحرك. فجأة، شعرت بيد قوية ترفعها عن الأرض. كان الرجل قد وصل إليها، يصرخ: "تعالي معي!"

حملها خارج البيت، تاركًا الأم خلفهما وسط اللهب الذي ازداد ضراوة. بمجرد أن خرجا، انفجرت النيران في زفير هائل، وكأنها تعلن عن انتصارها. سقطت نادية على الأرض، تنظر إلى البيت المحترق بعينين جامدتين.

بينما كانت تُسحب بعيدًا عن المشهد، ظلت تصرخ: "أمي! أمي!" لكن صوتها غرق وسط أصوات الحريق. في تلك اللحظة، شعرت وكأن جزءًا من روحها قد احترق مع البيت.

لعن العمدة سلسفيل أجدادها عندما وصله خبر ما حدث. كانت ملامحه تتقلص بين الغضب والحيرة، فقد اضطر إلى مغادرة عرس ابنه على عجل، تاركًا وراءه تلك النظرات التي تشابكت بينه وبين غزل الغجرية. كانت نظراتها تحمل حديثًا لا يُقال، وكأنها مرآة لأسرار مدفونة لا يعرفها سوى الليل.

بعد ما عاد إلى الفتاة وعيها أخبرتهم بأمر الشيخ مبروك، فأرسل العمدة الغفر لجلبه.

وبعد الضغط عليه وضربه بالعصا حتى تهشمت عظامه اعترف بكل ما حدث، وبأنه عند خروجه من باب المنزل، سقطت إحدى الشموع التي أضاءتها قدرية كما طلب هو منها ليكتمل طقس إخراج الجني، رآها ولكنه خشي العودة لإطفائها فلاذ بالفرار.

وبعدها تمددت النيران حتى أحرقت البيت على آخره بفعل الحطب الذي كانت تكومه قدرية ليساعدها في الخبيز، لم تجد الفتاة مأوى بعد موت أمها وحريق بيتهم والفضيحة التي طالتها، تهافت عليها رعاع القرية

يريدون نيلها واللوذ بمفاتنها، وقد علموا بما قد طالها ليلة حريق البيت فازدادوا فيها طمعًا.

فرت الفتاة منهم حتى وصلت إلى أقصى القرية، رأتها العجوز برهان فرفقت بحالها وسألتها أن تعيش معها، لم يكن أمامها خيارات متعددة لتختار من بينها، فأذعنت لطلبها، وافقت أن تعيش معها مقابل رعايتها وخدمتها، طالما ستبقى بعيدة عن رجال القرية الدواعر.

أما مبروك فقد زاده الخفر ضربًا، فالتقط أنفاسه الأخيرة تحت عصيهم دفنوه بأمر العمدة "ولا من شاف ولا من دري".

****

البشرى

ملأت الزغاريد المكان في بيت العمدة، حيث ارتفعت أصوات الفرح، مستبشرةً بمولودٍ جديدٍ. كان العمدة قد أمر بذبح عجل وتوزيعه على أهل القرية احتفاءً بمقدمه، فقد علم الجميع أن شوق، زوجة ابنه فارس، تحمل في بطنها ولي العهد.

"يا أهل القرية!" صرخ الخفر، صوته يصدح عبر الساحة. "لقد جاءنا خير عظيم! شوق تحمل حفيد العمدة، فلنحتفل جميعًا ونشارك في هذا الفرح."

تجمعت النساء حول الدوار، وقد ارتسمت الابتسامات على وجوههن، رغم الخوف الذي ما زال يعتري قلوبهن. كان هناك شعور مختلط من الفرح والقلق، إذ علم الجميع أنّ تلك النبوءة قد تضعهم في مواقف لا تُحمد عقباها.

وفي وسط النساء، كانت شوق تتجاذبها أفكار متضاربة، تشعر بشعور غريب ولا تدري لِمَ ينتابها الخوف، فتحت عينيها ونظرت إلى السماء، وكأنّها تبحث عن إشارة في النجوم، "هل سيكون هذا الفرح دائمًا، أم أن الشر سيأتي من الجوانب التي لا نراها؟"

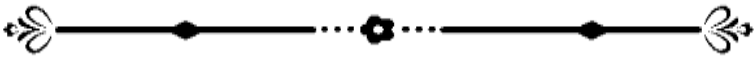

سارعت إحدى النساء لتقول بتفاؤل: "إياك أن تقولي ذلك، شوق! دعينا نتمتع بلحظات السعادة هذه."

وهكذا، تتداخل الأقدار وتتقاطع السبل، وفي قلب هذه القرية التي تحيا تحت وطأة النبوءات والصراعات، تبقى هناك أسئلة لا إجابة لها.

****

الولادة

مرت الشهور في القرية الصغيرة في هدوء نسبي، ولكن مع اقتراب موعد ولادة الغجرية، خيّمت أجواء من الخوف والقلق على البيوت. اجتمعت النساء في ساحة القرية، عيونهن تحمل قلقًا عميقًا، كلّ منهن تحمل همًّا خاصًا. ترددت همساتهن في الهواء، وحرّكت قلقهن كالأمواج المتلاطمة.

تسعة أشهر من الانتظار بلغت ذروتها في تلك الليلة الموعودة. تكدّست السحب الكثيفة في السماء، حجبت نور القمر وزادت من حدة الظلام. تراقصت أضواء الشوارع الضعيفة، والخوف يتربص في العتمة. كانت الرياح تعصف بالأشجار كهمسات الشياطين، والهواء مشحون بتوترٍ غريبٍ.

كلّ همسة أو صوت بعيد كان يحيل القلب إلى دقات طبول حرب، تترقب الأنفاس الحبيسة كعصفور محاصر في قفصه، ينتظر لحظة الانفراج. كانت الحواس تتأهب، كجنود على أعتاب معركة وشيكة، وكأنّ تلك الليلة تحتضن أسرارًا كامنة تنتظر اللحظة المناسبة للانفجار.

تزامنت لحظة ولادة ثلاث نساء، إذ ارتفعت أصواتهن بالأنين في تناغم غير متوقع. عاشت كلٌّ منهن صراعًا مع الألم، ولكن في تلك اللحظة، لم يكن

الألم وحده ما يجمعهن؛ بل خيط رفيع يربط مصائر أبنائهن في ظلال الغيب. بينما انفصلت الأرواح الصغيرة عن أحضان أمهاتهن، كان القدر ينسج حكايات غير مرئية، تخفي مصائر قد تتداخل أو تتباعد.

لم تكن النساء يدركن أنهن كالأشجار التي تثمر في أرض واحدة، تحمل كلّ واحدة ثمرة من ثمار القدر، تنمو في الظل دون علم، منتظرة اللحظة التي ستجمعها.

إحداهن كانت الغجرية، التي تلاعب الأقدار بخيوطها الخفية، وحيدة في خيمتها التي أجبروها على المكوث بها حتى يحين الوقت لوضع وزرها، الأضواء تخبو فتزيد من شدة الكآبة.
منبوذة، تختنق روحها تحت وطأة عبءٍ قاسٍ.
تلد في صمتٍ قاتلٍ، يتردد فيه صوت أنفاسها المليئة بالألم، بينما عينٌ واحدة فقط كانت تراقبها من بعيد. كانت تلك العين تترقب ولادتها لترى كيف ستتمكن من الهرب بطفلها من قبضة القدر الذي يلاحقها، ومن المصير الذي ينتظره على أيديهم.
لكنها كانت تدرك أنّ اللحظة الحاسمة تقترب.

أما الخوف الذي كان يعتري أهل القرية لم يكن خوفًا من الغجرية وحدها، بل كان خوفًا على ما قد يحدث لو تمكنت من إنقاذ ابنها وأخذه بعيدًا قبل أن ينفذ عليه حكمهم.

مع كل انقباضة مؤلمة، كانت أمواج الألم تضرب جسدها، تضع يديها على بطنها، وكأنها تحاول حماية ما بداخله من مصيرٍ مرعب. كانت أنفاسها تتسارع، تشتبك مع الصرخات المتقطعة، وتلتقي مع بقايا الخوف الذي كان يملأ الغرفة. ومع كلّ صرخة، كان الخوف يتعاظم، كأنّها تعلن حربها على ما ينتظر ابنها.

تنازعها المشاعر؛ مشاعر الأمل في النجاة به وحجبه عنهم، ومشاعر الرغبة في الهروب بعيدًا عن كلّ هذا الخطر وتركه لمصيره. لكن، في خضم هذه المشاعر، كانت تخفي في نفسها ما سيغير مجرى الأمور. كانت تحمل في أحشائها سرًا، قد يفتح أمامها أبواب الفرج أو يجلب لها المزيد من التعاسة.

يراودها حلمًا تعرف، في قرارة نفسها أنّ لديها القوة والشجاعة للقتال من أجله.

وما بين الآلام والصراخات، برزت تلك الروح الصغيرة إلى النور، تخرج من عتمة الليل إلى عالم ملئ بالخوف.

بينما كانت الأخرى، شوق، زوجة فارس ابن العمدة، تحمل في يديها آمالًا وضعتها في ابنها سليل الحسب والنسب.

في دوار العمدة، كان المكان مليئًا بالنساء، يتنقلن بين الغرف، بينما تتصاعد أنفاسهن المثقلة بالتوتر. كانت حيلاء، الخادمة الوفيّة، تجلس بجوار شوق، تمسح جبينها المتعرق وتهمس في أذنها بكلمات تطمئنها: "اهدئي، يا سيدتي. كل شيء سيكون على ما يرام، أنا هنا معك" قالت حيلاء، وعيناها مليئتان بالقلق، بينما راحت تمسح عرق جبين شوق بيدها المرتعشة.

كانت شوق تتألم بشكل متقطع، وفارس، زوجها، يدور في المكان متوترًا، يراقب بقلق ما يجري. سألها: "بمَ تشعرين؟" وعيناه مليئتان بالقلق، تتنقل بين الحضور، وكأنه يبحث عن دليل على أنها بخير.

ردت، وهي تضغط على يد حيلاء بجوارها:

"أشعر بالألم، لكنّني سأتحمل. يجب أن أتحمل من أجل طفلنا"

تتعالى صرخات شوق مع كلّ انقباضة. كانت اللحظات تمر كالساعات، وعندما زادت صرخاتها، صرخت بها إحدى النساء: "تستطيعين فعلها يا شوق، نحن معك!"

وفي الجانب الآخر من القرية، في خيمة برهان نادية المسكينة التي حُبست بين جدران الوحدة، تحمل عبئًا لا يُحتمل، ثمرة خديعة مبروك الدجال. في تلك الليلة الكبيسة التي شهدت احتراق منزلها وموت أمها

كان الوضع مختلفًا تمامًا، فلم تكن سوى العجوز برهان تساعدها.

سألت برهان بحنان، وهي تمسك بيد نادية التي كانت ترتجف:

"لا تخافي، يا نادية، لا تخافي. قولي لي، كيف تشعرين؟

أجابتها نادية، وصوتها مملوء بالخوف، بينما كانت عيناها تتجولان في الخيمة، تبحثان عن أي بارقة أمل:

"أشعر أن كل شيء ينهار حولي... لكنّني أريد أن أكون قوية من أجل ابني"

قالت برهان، محاولة طمأنتها:

"إنه وقت الألم، لكن سيتبعه فرح. تذكري، كل ولادة هي بداية جديدة."

بينما كانت نادية تتألم، أحسوا بخطوات تتحرك نحو الخيمة شخص لم يكن متوقعًا قدومه، لقد كان سامي، ذلك الرجل الغريب الذي طلب يدها من قبل، جاء ليطمئن على حالتها.

قال بصوت خافت، يثير الدفء في الغرفة الباردة: "هل تحتاجين إلى أي شيء؟ سأساعدك بكل ما أستطيع"

شعرت نادية بخفقان قلبها يتسارع لدى رؤيته، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يعبر فيها عن مشاعره، منذ أن جاء إلى برهان قبل عدة أشهر، مستحلفًا إياها أن تقنعها بالزواج منه.

قالت برهان حينها: "إنه رجل تقي، مختلف عن رجال القرية الدواعر"، لكن نادية، التي كانت تأمل في الهروب من ماضيها المؤلم، لم تكن متأكدة من مشاعرها نحوه.

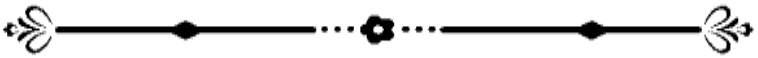

ردت نادية، مع دمعة تسقط على وجنتها:
"أحتاج إلى القوة... أشعر أنني وحيدة، ولا أستطيع فعل هذا بمفردي"
قالت برهان، في محاولة لإشعال شرارة الأمل:
"أنتِ قوية يا نادية. لا تستسلمي الآن!"
تأمل سامي في وجهها، وملامح القلق والضعف كانت تظهر جليةً.
قال، وعيناه تتلألآن بصدق: "أنا هنا من أجلك. سأكون بجانبك دائمًا، ولن يفرقنا إلا الموت"

في منزل شوق، ارتفعت صرخاتها، مما جعل النساء حولها يتجمعن بإحكام، يحاولن مساعدتها بكل ما يمكن. بينما في خيمة نادية، كانت برهان وسامي يحاولان تهدئتها وهي تخوض معركة الألم.

وفجأة، خرجت صرخات مدوية في نفس الوقت، كأنما كان القدر يتلاعب بخيوط حياتهم. في منزل شوق، خرج الطفل إلى النور، وكانت الدموع تنهمر من عينيها في لحظة من الفرح المخلوط بالألم، بينما كانت حيلاء تحتضنها بشغف، همست لها وهي تبتسم وتشير باتجاه الصبي:
"لقد ولدتِ! انظري إلى وجهه، إنه جميل!"

في الخيمة، استقبلت نادية طفلها في صمت قاتل، لكنها شعرت بالطمأنينة وعيناها تتحول ما بين طفلها وسامي مستشعرةً أن تلك اللحظة قد تكون بداية جديدة.

....

"شوق! لا! استيقظي!" صرخت حيلاء، بينما ارتجف قلبها. فتشتت انتباه النساء اللواتي كن يحاولن مساعدتها، وبدأت الفوضى تعم المكان. في تلك اللحظة، نسوا الطفل الذي وُلِد للتو، والذي كان ممددًا بجانب والدته.

وبينما كلٌّ منهن مشغولة في محاولة إيقاظ شوق، بدأ الضياع يتسلل إلى المكان..

كانت إحداهن قد اتخذت قرارًا جريئًا. في لحظة سريعة، خطفت الطفل من أحضان النساء، وانطلقت به بعيدًا.

صرخت إحدى النساء مشيرة إلى السرير الفارغ.

"أين الطفل؟!"

تعمّق الذعر بين النساء، وكلٌّ منهن تنادي على الأخرى في محاولة للبحث عن الطفل. في تلك اللحظة، نسوا شوق التي كانت غائبة عن الوعي، وانشغلوا بالبحث عن المولود الجديد، الذي أصبح وكأنه "فص ملح وداب".

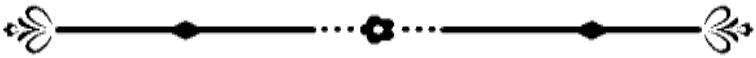

في خيمة برهان، كانت نادية تستعيد أنفاسها بعد ولادتها. شعرت بالراحة عندما أخبرها سامي بأنّ الطفل بخير. قال، وهو ينظر إليها برقة: "لا داعي للقلق."

نظرت إليه وعيونها تنطق بالكثير. استسلمت نادية للنعاس، وتراخت في سريرها، مطمئنة أنّ الأمور في أيدٍ أمينة.

وبينما كانت برهان مشغولة في طهي الطعام لنادية، كانت هي قد غفت، وسمحت للراحة بأن تأخذها بعيدًا عن الواقع.

في تلك اللحظة، أخذ سامي الطفل وفرّ هاربًا به.

صاحت برهان، محاولة اللحاق به:

"لا! انتظر!" لكنّه كان قد اختفى في ضباب الليل.

****

تضحية غزل

احتشد أهل القرية أمام خيمة غزل، حيث الهواجس تلتف حولهم كالأشباح. كانوا قد تلقوا إشارة بأنّ غزل قد أنجبت أخيرًا ما كانوا يخشونه جميعًا: الجنين الملعون. كان الانتظار ثقيلًا، وكانت نظراتهم تتقاطع تحت ضوء القمر الباهت، تبحث عن إجابة لأسئلة لم يجرؤوا على طرحها. وقفت النساء في الخلف، تهمسن وتتكهن بما سيحدث، بينما وقف الرجال أمام الخيمة، قلوبهم مليئة بالخوف والشكوك.

خرجت غزل من خيمتها بخطوات واثقة، وعلى ذراعيها لفة تحوي ثلاثة أطفال عراة، لا يميز أحدهم عن الآخر شيء. كان الصمت قاتلًا، وتحت نظرات الجميع رفعت غزل رأسها، ونطقت بصوت بارد لكنه واثق:

"أنتم الذين حكمتم على ابني بالموت، ادعيتم أنّ الدم الذي يسري في عروقه ملعون، وأنه لا يستحق الحياة. وها أنا أقدم لكم ثلاثة أبناء. ابني، ولكن ليس وحده. قد خطفت ابن شوق، وابن نادية أيضًا. الآن، ها هم بين أيديكم، تفضلوا، ميّزوه إن كنتم قادرين، واقضوا عليه، عندها سأرضى بحكمكم."

انقبضت الأجواء حولها، وكل الأنفاس حُبست في صدورهم. نظرات متوترة، مترددة، كانت تتأرجح بين وجه غزل، حيث يقف التحدي، وبين الأطفال الثلاثة الذين بدوا كأنهم مجرّد أرواح صغيرة غير مدركة للعاصفة التي تجتاح حياتهم. كان القرويون يعرفون أنهم عاجزون عن تمييز أيهم ابن غزل؛ الأطفال جميعهم حديثو الولادة، لا يوجد بينهم فارق ملموس، فلا شيء يدل على ملعون أو مقدس.

وقف الرجال في حيرة لا يعرفون كيف يردون على هذا التحدي.
وبرهان، تقف صامتة خلف الجموع، عيناها تركزان على غزل، كما لو كانت تنتظر منها براهين أخرى، أو أنّها كانت تأمل في أنها قد تعترف بشيءٍ ما. أما غزل، فقد كانت تنظر إليها بنظرة لا تعرف الخوف، وابتسامة خفية ترتسم على وجهها. وكأنّها كانت تقول لها: "لن تستطيعوا فعل شيء."

تقدّم أحد الرجال، مظهرًا الغضب الذي اجتاح صدره. قال بحدة، وصوته يتردد كالرعد في الساحة الصغيرة:
"لن نستسلم لهذا الخداع يا غزل. نعرف أنك تحاولين إنقاذ ابنك من مصيره. هذا لن يمر علينا. لابد أن هناك طريقة نكشف بها أمره!"

لكن غزل كانت مستعدة لمثل هذه الكلمات. ردّت بهدوء مشوب بالسخرية:

"تقولون إنكم تعرفون اللعنة، وتدّعون الفهم والحكمة. لكن أمامكم الآن اختبار. أنتم من أطلقتم الأحكام، والآن، حان دوركم لإثبات قدرتكم على تمييز الحق من الباطل. أو... لعلّكم لستم سوى ظالمين تصدرون الأحكام دون برهان."

بدأت همسات الناس تزداد خلف الجموع. كانت أصوات النساء ترتفع قليلًا، ووجوه الرجال تغمرها الحيرة. البعض يحدق في برهان، منتظرين أن تنطق بكلمة، لكنها ظلت صامتًا. لم يكن هناك طريق سهل للخروج من هذا المأزق.

تقدّمت برهان أخيرًا، وبصوت هادئ لكنه مليء بالسلطة، قالت:
"غزل، إنك تلعبين لعبة خطيرة. قد تكونين واثقة من نفسك الآن، لكن الحقيقية ستظهر عاجلًا أم آجلًا. اللعنة لا تخفى، وسيأتي يوم تنكشف فيه الأمور."

نظرت غزل إليها بعينين مليئتين بالتحدي وقالت:
"ربما، لكن حتى يأتي ذلك اليوم، أنتم من يجب أن تعيشوا مع الشك. لن أعطيكم الحل، ولن أساعدكم في هذا اللغز. أنتم من أطلقتم النار، وعليكم الآن تحمل العواقب."

وقف الجميع عاجزين، يتساءلون في داخلهم: كيف لهم أن يميزوا بين الأطفال الثلاثة؟ كان كل طفل يبدو كأنه صفحة بيضاء، لا أثر لأي شيء يدل على هويته أو مصيره. الوقت يمر، والقرية كلها كانت تحت الضغط، بانتظار من يأخذ الخطوة الأولى، لكن لا أحد كان يجرؤ على التقدم.

تحت ظل الشجرة العتيقة، كانت الأنظار كلها مسلطة على الغجرية، التي سُحبت قسرًا وربطت بجذع الشجرة بإحكام. أيدي الرجال كانت متوترة وهم يلفّون الحبال حول جسدها الهزيل، وعيونهم مليئة بالخوف والتردد. لم يكن أحد منهم قادرًا على كسر الصمت الثقيل الذي خيّم على المكان. وحدها نظرات الغجرية كانت صامدة، تتحدى الخوف، تحدق في الأفق وكأنها على دراية كاملة بما سيحدث بعد لحظات.

صرخت إحدى النساء من الخلف: "أين اختفت برهان فجأة، لقد كانت هنا منذ قليل، علينا أن تقرر ما نفعل. لا أحد منا يجرؤ على اتخاذ القرار."

لم يكن الانتظار طويلًا حتى اقتربت برهان من خلف الحشود، تمشي بخطى ثابتة، جسدها نحيل لكنه صلب يتماشى مع قسوة الموقف. نظراتها كانت باردة، خطواتها مترددة، ولكنّها وقفت أمام الغجرية، والتفتت إلى الرجال، قائلة بصوت يشبه حفيف الرياح الجافة:

"إن كنتم عاجزين عن تمييز الطفل الملعون، فلن يبقى أمامكم إلا خيار واحد. وعاء اللعنة بين أيديكم، وهو هذا الجسد. كل منكم يحمل سكينًا، وكل منكم عليه أن يحرر نفسه من اللعنة بيديه. النبوءة ليست عبثًا، وإن لم تتحلوا بالشجاعة، ستنزل عليكم لعنة أشد من الموت نفسه."

خيّم الصمت على المكان مرة أخرى. الرجال كانوا يتبادلون النظرات المرتبكة، أي منهم لم يرغب في أن يكون أول من يغرز السكين. في أعينهم، الغجرية لم تكن سوى تجسيد للذنب المجهول. لكنها، ورغم الحبال التي تقيدها، لم تبدُ ضعيفة. على العكس، كانت هادئة، وكأنها كانت تستعد لهذا المصير طوال حياتها.

أحد الرجال قال بصوت متهدج: "لا أستطيع. ماذا لو كان هذا خطأ؟ ماذا لو ارتدت اللعنة علينا جميعًا بعد ذلك؟"

ردت برهان بقسوة: "اللعنة معلقة برقابكم الآن، والخوف لن ينقذكم. افعلوا ما يجب فعله أو استعدوا لأسوأ ما قد يحدث."

بخطوات مترددة، اقترب الرجال واحدًا تلو الآخر، وكل منهم كان يمسك سكينًا بيده المرتعشة. أول سكين اخترق جسد الغجرية، فارتعشت للحظة لكنها لم تصرخ. لم يظهر على وجهها أي ألم، بل كانت عيناها ما تزالان

مثبتتين على الأفق. تتابعت الطعنات، كل منها يغرز عمقًا في جسدها وكأنها محاولة بائسة للتخلص من عبء اللعنة.

بدأت دماؤها تسيل ببطء، تتناثر على الأرض القاحلة تحت الشجرة. قطرة بعد قطرة، كانت الحياة تهجر جسدها، لكن الغجرية لم تتراجع. بدت وكأنها تحتضن مصيرها، تستقبل الموت بشجاعة لم تكن متوقعة من امرأة مقيدة بجذع شجرة.

قبل أن يفارقها آخر نفس، رفعت رأسها قليلًا، والتفتت نحو الأطفال الثلاثة، عيناها مليئتان بالحكمة التي تتجاوز حدود هذا العالم. ابتسامة خافتة شقت طريقها إلى شفتيها المتشققتين، وكأنها تباركهم أو تسخر من النهاية المحتومة. لم يعرف أحد المعنى الحقيقي لتلك الابتسامة، لكنها كانت آخر ما رآه الجميع قبل أن تغمض عينيها إلى الأبد.

بهدوء ثقيل، انسحب الرجال، وكأنهم تخلصوا من ثقل كبير كان يرزح على أكتافهم. جاء رجلان بعد ذلك، يحملان المجارف، وبدأا في حفر حفرة تحت الشجرة. عملوا بصمت، دون أن ينبسوا ببنت شفة، وكأن الفعل ذاته كان طقسًا مقدسًا لا يحتاج إلى كلمات.

بعد أن حفروا الحفرة بعمق كافٍ، فكّوا وثاق الغجرية وأسقطوا جثتها في الحفرة، كأنهم يسدلون الستار على فصل من فصول تلك النبوءة القاسية. لم يكن هناك صلاة أو وداع. فقط الرماد الذي أُهيل على جثتها كغطاء أخير للعنة التي حملتها في حياتها.

ثمّ، وبينما كان الجميع يتهيأ للانصراف، اقتربت إحدى نساء القرية، وجهها متجهم وكأنها تحمل الحقد في قلبها. رفعت جلبابها وتبولت فوق الحفرة، في إهانة نهائية لتلك المرأة التي لم يكن موتها كافيًا للتخلص من اللعنة التي كانت تجسدها. لم يتجرأ أي رجل من الرجال أن يعترض، ولم ينبس أحد بكلمة. كانوا يعرفون أنّ اللعنة ما تزال هنا، تنتظر أن تحلّ بطرق أخرى.

تحت ضوء القمر الخافت، وقفت نادية وشوق أمام الأطفال الثلاثة، تلك اللفائف الصغيرة التي كانت تضم أسرارًا أكبر من أن تتحملها عقولهما. كل واحدة منهما تنظر إلى وجوه الأطفال المتشابهة بعيون متوسلة، تحاول عبثًا أن تميز ملامح ابنها، أن ترى ولو شبحًا من ملامحه بين تلك الوجوه الطرية التي لم تحفر فيها الأيام أثرًا بعد.

نادية كانت تشعر بخوف يكاد يخنقها. قلبها كان يخفق بقوة، وكأنما يطلب الرحمة، تطاردها الأفكار: "هل هو هذا الذي عيناه نصف مغمضتين؟ أم ذاك الذي يبكي؟ أينك يا بني؟"

أما شوق، فقد وقفت بجانبها، مشدوهة، تحمل ذات العبء. كان عقلها يغرق في دوامة من التساؤلات، صامتة لكنّها قاتلة: "هل هو هذا الذي تحرك بيديه؟ أم ذاك الذي يرتجف؟ من أنت يا طفلي؟ كيف أميّزك؟ كيف أمسك بك وأنا لا أستطيع رؤيتك؟"

الصمت كان يخيم على المكان، صمت ثقيل يمزق القلوب ويمزجها بالشكوك والخوف. وبينما كانت المرأتان تغوصان في دوامة الحيرة، اقتربت منهما برهان، كان وجهها مظلمًا، لكنّ في عينيها شيئًا من الحكمة القديمة، تلك الحكمة التي يعرفها كل من شهد عصورًا طويلة من الألم والمعرفة. تقدمت بخطوات بطيئة نحو الأطفال، وكأنّها تزن كلمتها قبل أن تخرج.

قالت برهان بصوت هادئ لكنّه يحمل في طياته ثقل الأقدار:

"لن تجدوا الإجابة بين وجوههم، فلن تعرفوا أيهم ابنكما، فكلهم سواء. جميعهم وُلدوا في ظل اللعنة، واللعنة لا تترك علامات واضحة يمكن للعين المجردة أن تراها."

تبادلت نادية وشوق النظرات، كل منهما تنتظر الخلاص على لسان برهان، تنتظر حكمًا ينقذها من هذه الحيرة المميتة.

تقدمت برهان نحو الأطفال، وقفت بينهم كما لو كانت تحرس بابًا سريًا لا يعلمه إلا هي. ثمّ رفعت عينيها إلى السماء، وكأنها تستحضر قوةً قديمة تفوق البشر، وقالت بصوتها الرنان:

"إن أردتما النجاة من اللعنة، فليس أمامكما إلا خيار واحد. ستقوم كل واحدة منكما بإرضاع هؤلاء الأطفال جميعًا. ليصبحوا إخوة بحليبكما، إخوة تربطهم الدماء والروح. لعلّ حليبكما يطهرهم من لعنة الملعون."

نادية، التي كانت تراقب برهان بذهول، تلعثمت في الكلام: "لكن... كيف؟ كيف يكون هذا؟"

أجابت برهان بحزم: "إن لم نعرف من هو الملعون بين هؤلاء، فليكن الجميع إخوة. الحليب قد يطهر أرواحهم. إن كانت اللعنة قد مست أحدهم، فإن إخوة اللبن سيحمونه. هذه هي النبوءة، وهذه هي الحكمة."

نظرت شوق إلى نادية بعينين مملوءتين بالخوف والتردد. "هل نقوم بذلك؟ هل نرضع أطفالًا لا نعرفهم؟"

نادية، رغم خوفها، عرفت في قلبها أن هذا هو السبيل الوحيد للخلاص. تنهدت بعمق وقالت بصوت خافت: "إذا كان هذا هو السبيل، فلنفعله."

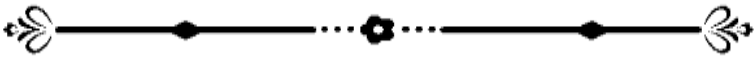

تحركت المرأتان نحو الأطفال ببطء، وكأنّ الثقل الذي كان على كاهلهما يزداد مع كل خطوة. جلستا بجانبهم، وبدأتا في إرضاعهم واحدًا تلو الآخر. كانت اللحظات ثقيلة ومربكة، وكأنهما تحاولان بناء جسور بين أرواح الأطفال، غير متأكدتين من نجاح هذه المحاولة.

بينما كانت شوق تحاول إخفاء دمعة لم تستطع كبتها، نظرت نادية إلى الطفل الذي في حضنها وقالت لنفسها: "ربما... ربما يكون هذا هو ابني. لكن إذا لم يكن، فليكن أخاه."

مرت الدقائق بطيئة، والنساء تتابعان الرضاعة، والجموع من خلفهما يراقبون بصمت مشوب بالرهبة. حتى برهان، التي اعتادت على مواجهة المواقف الصعبة، بدت للحظة وكأنها تراقب هذا المشهد بنوع من التوتر.

عندما انتهت نادية وشوق من إرضاع الأطفال الثلاثة، وقفت برهان أمام الجميع وقالت بصوت عميق يحمل نهاية القرار:

"الآن أصبحوا إخوة. لعنة الملعون لن تنالهم ما دامت دماؤهم واحدة وحليبكما يجري في عروقهم. لتتأملوا هذا الحكم، ولتتذكروا أن الحياة أحيانًا تمنحنا حلولًا لا نفهمها. الحليب هو عهدكم الجديد."

ابتعدت برهان قليلًا، تاركةً النساء والأطفال تحت ظلال الأشجار. كانت تلك اللحظة مزيجًا من الخوف والأمل، وكأن الجميع ينتظر أن يُكشف المستقبل على ضوء تلك النبوءة الغامضة.

وبينما كانت الشمس تغيب ببطء خلف الجبال البعيدة، أخذ سامي وحيلاء يبتعدان عن القرية، خطواتهما ثقيلة وكأنهما يحملان على أكتافهما ثقل المشهد المرعب الذي شهداه للتو. كان الصمت يسيطر عليهما للحظات، لكن داخل رأسيهما كانت الأفكار تتصارع بلا هوادة.

تحدث سامي أولًا، وصوته مفعم بالغضب المكبوت: "هؤلاء الغجر... كيف يعيشون بهذه القوانين الملتوية؟ النساء عندهم إذا لم يسرقن، لا يُعترف لهن بأي قيمة. أي عرف هذا الذي يقضي بأن تُقتل المرأة إذا رفضت أن تكون لصّة؟"

هزت حيلاء رأسها ببطء، نظراتها تحمل شيئًا من الحيرة والألم. "أعرف... هذا ما جعلني أشعر بالغثيان طيلة حياتي. هذه القوانين ليست قوانين، بل وحشية تُغلّف بالعرف. عاهرة أم سارقة، المرأة لا خيار لها سوى أن تكون أداة، وإلا فالموت ينتظرها."

التفت سامي نحوها، عيناه مشدودتان بالقلق والحنق. "لكن العهر؟ كيف يمنعون شيئًا ويحللون آخر؟ السرقة حلال، والعهر والخمر حرام؟ ماذا عن غزل؟ ألم تكن خارجة عن كل عرفهم؟"

تنهدت حيلاء، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تجيب. "غزل كانت شيئًا مختلفًا. لم تكن قادرة على النشل والسرقة مثل الأخريات. كانت تملك جمالًا لا مثيل له، وهذا كان سلاحها الوحيد. استغلت ذلك لتعيش، كانت تبيع جسدها مقابل المال، وفي عرف الغجر من يفعلها يُطرد.

سأل سامي، صوته مليء بالدهشة والغضب.

- "وهل طُردت غزل لهذا السبب؟"

- أومأت حيلاء ببطء: "نعم، طردوها. كانت خيانة لقوانينهم. لم يغفروا لها أنها جمعت بين الشيئين: جمالها، وبيع نفسها. كانوا يقولون إنه لا مكان بيننا لمن لا تعرف كيف تسرق، كيف تستغل قوتها بطرق يرضون عنها."

سامي توقف للحظة، نظراته تحولت إلى الأرض، وكأنه يحاول أن يستوعب هذا المنطق الملتوي. "لكن... هذا لا معنى له. كيف يمكن لمجتمع أن يخلق مثل هذه التناقضات؟ سألها:

- لماذا السرقة مقبولة، والعهر لا؟"

تابعت حيلاء حديثها:

- "لأنّ السرقة جزء من هويتهم، السرقة في عرفهم ليست مجرد فعل، إنها تأكيد على أنك تنتمي، أنك تعرف كيف تعيش في هذا العالم القاسي. أما العهر، فهو خيانة للجسد وللشرف، لأصول القبيلة. ولهذا كانوا يطردون كل من تخطى هذا الحد."

صمت سامي لحظة أخرى، ثم تنهد:

- "إذًا غزل كان محكوم عليها بالموت منذ البداية."

- "نعم، لأنها خالفت ما يؤمنون به. لم تكن سارقة، ولم تكن طاهرة في نظرهم. كانت مجرد لعنة، ونهاية حياتها كانت محسومة."

بينما كانا يسيران بين الأشجار، بعيدين عن القرية وأصواتها المتلاشية، توقف فجأة. بدا كأنّ شيئًا غير طبيعي يحدث أمامهما. من بين الأعشاب الطويلة والظلال الملتفة، خرجت أفعى كوبرا ضخمة. كانت تقف على أطراف القرية وكأنها تراقب، تتمايل ببطء في حركات راقصة بلا مزامير.

- "ما هذا...؟" تساءل سامي بصوت منخفض، متوترًا.

- حيلاء رفعت يدها، تحاول تهدئته: "لا تتحرك، هذه الكوبرا ليست هنا بالمصادفة."

الأفعى رفعت رأسها ببطء، جسدها الضخم ينحني ويتمايل في حركة مهيبة، وكأنها تحذرهما أو تتحدى أي محاولة للاقتراب. لم يكن أحد يمسك بمزمار أو يعزف لحنًا، لكنها كانت تتراقص بلا حاجة إلى موسيقى.

- "هل هي علامة؟" تساءل سامي، همسًا.

- أجابت حيلاء، نظراتها ملتصقة بالأفعى: "ربما تكون هي اللعنة التي تحدثوا عنها، وربما تكون هي روح غزل جاءت لتحمي ابنها حتى بعد موتها."

تراقصت الأفعى لثوانٍ أخرى قبل أن تتوقف فجأة، ثم اتجهت نحو القرية.

....

في زقاقٍ ضيقٍ حيث جدران البيوت تتشابك لتُبقي الشمس خلفها، كانت نادية تسير بخطوات متعثرة عائدة من بيتهم المحترق بعدما نادتها الذكريات لتذهب إليه وتلقي نظرة، تُصارع خوفها المتصاعد الذي يُحكم قبضته حول قلبها. الهواء في ذلك الممر بدا ثقيلًا، مشبعًا بالريبة والخطر، وصدى خطواتها المتسارع يتردد في الفضاء كأنه يعلن عن اقتراب شيء مخيف. فجأة، ظهرت أمامها مجموعة من الرجال الغاضبين، وجوههم متجهمة وأعينهم تفيض بالحقد والغضب المكبوت، أحاطوا بها كما تحيط الذئاب بفريستها.

"أنتِ وابنكِ ملعونان، مثل تلك الغجرية التي جلبت العار علينا جميعًا!" صرخ أحدهم، عيناه تقدحان شررًا، وهو يتقدم نحوها بخطى ثقيلة، كأنما يحمل في قلبه كومة من الكراهية المتجذرة. "ابنكِ ليس سوى نسخة أخرى من ابن غزل، جاء من علاقة محرمة، كما فعلت هي!" قالها بلهجة لا تحتمل الشك، تتساقط كلماته كحمم بركانية تلتهم أعصاب نادية.

رغم ارتعاش شفتيها وتلك العيون التي توسعت بفعل الصدمة، حاولت أن تتماسك، أن تجد كلمات ترد بها الهجوم اللاذع. لكن صوتها كان مخنوقًا، والكلمات التي كانت تبحث عنها خانتها، كأن الخوف قد أصاب لسانها بالشلل. تذكرت تلك الليالي الحالكة بعد حريق منزلها، حين توافد هؤلاء الرجال أنفسهم، يلتفون حولها كالثعابين الجائعة، يتحدثون بألسنة معسولة وأعينهم تلتهم جسدها بنظرات لا تعرف الحياء.

عندما استعصمت، عندما رفضت أن تخضع لابتزازهم أو تنحني لإغرائهم، انقلبوا عليها، أضمروا في قلوبهم غلًا وحقدًا، وكانت معرفتهم بحقيقة ابنها اليوم ذريعةً لينفثوا سمومهم من جديد. "أتظنين أن التاريخ ينسى؟" قال أحدهم بنبرة حادة كالسيف، صوتُهُ يعلو بين زملائه، يثير في قلوبهم الحقد الذي لم يخمد قط، "لقد خسرتِ كل الدعم، والآن، لن نتركِ وشأنكِ!"

التفت إليها آخر، كان يقف خلفه كظلٍ مظلم، نظرته تمزق الستار الذي حاولت نادية أن تخفي وراءه خوفها، "أنتِ معتادة على العيش في العار، أليس كذلك؟ لا تختلفين عن غزل، ملعونة أنتِ وملعون ابنكِ." ضحكته الجافة ترتفع بين الجموع، كصدى لنذير شؤم، تستشعر نادية فيها كل الكراهية المتأصلة في قلوبهم.

حاولت نادية الرد، حاولت الصمود أمام هذه النظرات الكريهة التي لم تترك لها خيارًا سوى أن تشعر بالخوف الذي عاد ليقيد قلبها كما كان يفعل في الماضي. "ابني ليس كما تتصورون!" انفجر صوتها أخيرًا، لكنها كانت تعلم أنه صوت لا وزن له أمام كومة الكراهية هذه، صوتٌ يضيع في صخب الكراهية الذي اشتعل من جديد.

"ابنكِ؟" قال أحدهم بنبرة ملؤها السخرية، مقاطعًا محاولتها للدفاع عن نفسها، "إنه وصمة عار، مثلك تمامًا!" عيناه تتوهجان بنظرة قاسية، وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيه كأنه قد انتصر في معركة لا ناصر فيها.

تجمع الرجال حولها يتبادلون الكلمات الحادة بنبرات تهديد مخيفة. كانوا يبحثون عن حجة لتدميرها، لإعادتها إلى ذلك الركن المظلم من الخوف واليأس. نادية شعرت بأنها محاصرة، محاطة بكلماتهم التي كانت كالسيوف تمزق جلد كرامتها، لكن في داخلها كان هناك صوت ضعيف، يُقاتل من

أجل البقاء، يرفض الاستسلام، يصرخ بأنه لن يكون لهم نصرٌ سهل هذه المرة.

تملصت من دائرتهم وركضت حتى عادت إلى الساحة العامة للقرية، حيث انتشر ضجيج الهمسات تحت وهج النهار المتوهج، تجمّع أهل القرية كالطيور على الأسلاك، عيونهم تترصد كل حركة، ونفوسهم تتأرجح بين الخوف والريبة.

وقفت وحيدة، محاطة بأمواج من القيل والقال، بقايا كبريائها تتلاشى تحت وطأة النظرات الحادة التي كانت تُرمى نحوها كسهامٍ مسمومةٍ. العمدة كان يقف على منصة حجرية مرتفعة ويظهر عليه أنه قد سمع من الخبر الكثير، وجهه متجهم وجبينه يقطب بغضب مكتوم. رفع يده كمن يحكم على مصير، وصوته يعصف بالساحة كعاصفة لا تهدأ.

صاح بصوتٍ مجلجلٍ كالرعد: "لا مكان للنساء الطليقات هنا بلا عصمة رجل. نادية، يجب عليكِ أن تخضعي لرجل يحميكِ من عيون الطامعين، رجل يمنع كل من تسوّل له نفسه أن يطمع فيكِ!"

الرجال في الساحة بدؤوا يتبادلون النظرات، همساتهم تتحول إلى جمل متناثرة، البعض منهم يتحدث بتأييد صريح لكلامه، ووجوههم تحمل علامات القبول بما يسمعون. كانوا يتحدثون عن نادية كما لو كانت صفقة،

كنزًا بلا حارس، امرأة يمكن لأي منهم أن يتملكها متى شاء، بلا مهر ولا عهد، وإن ضاق بها ذرعًا، سيتركها لرجل آخر أو يهملها كما يُهمل العبيد.

بينما علت همسات الرجال بنبرة التملّك والهيمنة، كانت النساء على الجانب الآخر يعبرن عن احتجاجهن بنبرة مزيج من الغضب والغيرة المكتومة، لم تكن نادية بالنسبة لهن مجرد امرأة طليقة، بل كانت تجسيدًا لما كنّ يخشين أنفسهن، تلك الرغبة الدفينة في الحرية التي قُمعت داخل صدورهن بفعل التقاليد والأعراف.

وسط هذا الضجيج والفوضى، وبين الحشود التي تتراشق بالكلمات كالسيوف، تقدمت برهان الحكيمة بخطوات هادئة، لكنها تحمل معها ثقل السنين وحكمة الأزمنة. كانت كتمثال قديم وسط الريح، ملامحها مشدودة وسلطتها تشع من كل حركة تقوم بها. رفعت يدها طلبًا للصمت، وصوتها كان كالسيف الذي يشق الهواء، يخترق الصخب بضربة واحدة.

"صمتوا جميعًا!" نادت، وصوتها كان حازمًا، يحمل في طياته سلطة لا تُجارى.
عيون القرويين اتسعت بدهشة، وصمت الساحة كان كأنه لحظة توقف فيها الزمن ذاته.

التفتت برهان إلى العمدة وبادلته نظرة تخترق روحه كما لو كانت ترى كل ضعف فيه، ثمّ قالت بصوتٍ باردٍ ثابتٍ، "إن كنت قد حكمت على نادية بأن تصبح تحت عصمة زوج، فإنّني أُطالب بأن يكون ابنك أيها العمدة هو ذلك الزوج. ليتوحد الجميع تحت جناح رجل واحد، رجل يكون محور هذا البيت الجديد أب للأطفال الثلاثة، ولن يكون غير ابنك هذا الزوج."

ساد صمت مُطبق في الساحة، كما لو أنّ الأنفاس قد حبست في الصدور، وكأنّ الأرض نفسها توقفت عن الدوران لبرهة. وجوه القرويين تتقلب بين الصدمة والذهول، وحدقت نادية بعيون واسعة، امتلأت بالخوف والارتباك. لقد كانت تعلم أنّ هذا القرار سيفتح بابًا جديدًا على عالم مجهول، وأنّ مصيرها قد وُضع بين يدي هذا المجتمع الذي لا يرحم.

وقف العمدة مشدوهًا، عيناه تشعان بالغضب، لكنّهما تحملان أيضًا مزيجًا من الرهبة والتردد، كأنّه يُدرك في تلك اللحظة أنه قد وقع في فخ لا مفر منه، فخ نُصب ببراعة من قبل برهان، تلك المرأة التي تفوق الجميع حكمة ودهاءً، امرأة تعلم الكثير من الأسرار ولا يمكن الاحتجاج على قولها.

بدأت الهمسات تتصاعد من جديد، ولكن هذه المرة لم تكن الهمسات مجرد قيل وقال، بل كانت أشبه بزوبعة من الأسئلة والشكوك، تتصاعد لتشكل عاصفة من الجدل والتوتر. عيون القرويين كانت تتقلب بين

الصدمة والتفكير العميق، وأيديهم ترتجف بتوتر متزايد، بينما كان الجميع يتساءل عما سيحدث لاحقًا.

ظلت نادية وحيدة، تحت وطأة تلك النظرات الفاحصة، تتساءل في صمت عما يخبئه القدر لها في مواجهة هذا المجتمع القاسي، وعن الأحداث التي ستفجر الصراع وتغير مجرى الأمور في قلب القرية.

****

صراع الأقدار

تسربت الأنباء كالنار في الهشيم. كان الحديث يدور في كل زاوية من زوايا القرية، بأنّ برهان قد أصدرت حكمًا لا يُقبل النقاش، بأن يتم زواج نادية من فارس، ابن العمدة.

في الدوار، اجتمعت النسوة يتناقلن الخبر. كانت زوجة العمدة، تجلس على مصطبة خشبية، تلعن حظها العاثر في ابنها الذي تزوج من شوق، ابنة معتمد الطفشان، والآن يُريدون تزويجه من نادية، التي رمتها الألسن بسهم من الشهوات والإشاعات. قالت بصوت مُتعب: "كيف يمكن له أن يرتبط بامرأة وضعت طفلًا من سفاح؟ أليس في ذلك عار على عائلتنا؟"

ردت إحدى النسوة، وهي تُحرك كفها في الهواء: "لكن برهان ترى أنّ هذا الزواج ضروري. إنه يهدف إلى حماية الأطفال، كي لا يتحملوا وزر اللعنة وحدهم."

شوق، التي كانت تجلس في الزاوية، لم تجد ما تقوله. صمتت وهي تستمع لحديثهن، ولكن قلبها كان يصرخ بداخلها. شعرت كأن حظها بات مربوطًا بخيط رفيع، وأن ما تخشاه يقترب منها. كان هناك شعور مُرعب

يرافقها: إن تم زواج فارس من نادية رغمًا عنها، ستحترق كل أحلامها التي كانت تصبو إليها.

وفي تلك اللحظة، أدركت شوق أنّ ما تخشاه سيلحق بها إن لم تتصرف. فكرت في أن تتولى زمام الأمور بنفسها. فقررت أن توافق على حكم برهان، لتحمي ما يمكن حمايته.

صعدت إلى غرفتها التي كانت أشعة الشمس تلامس جدرانها وكأنها تُخبرها بأنّ هناك شيئًا كبيرًا سيحدث. كان فارس يجلس على مقعده، وعندما رآها، تجمدت نظراتهما. كان هناك صمتٌ مُتبادل بينهما، ولكنه كان صمتًا مليئًا بالأفكار المضطربة.

- قالت شوق، وقد ارتجف صوتها: "فارس، علينا الحديث."
- تأملها فارس بقلق، قبل أن يجيب: "عن ماذا؟"
- "عن زواجك من نادية."
- "هذا الأمر مستحيل! لا يمكنني فعل ذلك. كيف يمكن أن أرتبط بها؟" كانت نبرته تعكس ضياعه وتوتره.
- "استمع إليّ، أرجوك. إذا لم توافق على ذلك، ستشتعل النيران في قريتنا، وسيكون مصيرنا جميعًا في خطر." كانت كلماتها محمَّلة بالجدية، وعيناها تتوسلان له.

- لكن فارس، بعنفوان الشباب، أصر على موقفه: "لكنها وضعت طفلًا من سفاح، لا يمكنني التورط في ذلك."

- شعرت شوق بأنّ الأرض تنسحب من تحت قدميها. تابعت: " ليس ذنب الأطفال. نحن بحاجة إلى لحظة من الحكمة، وهذا الزواج سيكون صوريًا. ستستمر الأمور كما هي، وسيحمي أطفالنا من أي عواقب، ولا تنسَ أنّ هذا الطفل الذي تنعته بابن السفاح، والآخر أيضًا الموبوء بلعنة أمه الغجرية سيكونان إخوة رضاعة لابننا، فما ذنب الأطفال بما فعل الكبار؟

حتى نادية ما ذنبها بما اقترفته يد أمها ومبروك، لم تكن سوى ضحية لألاعيبهما.

- أخذ فارس نفسًا عميقًا، وكأنّ شيئًا ما بدأ يتغير في داخله. نظر إلى عينيها، ثم أومأ برأسه بصعوبة: "حسنًا، إذا كان هذا فيه الخير، فسأوافق. لكنني لن أدخل بها."

تم إعلان الزواج، اجتمع أهل القرية جميعًا ليشهدوا هذا الحدث الغريب. كان الجميع يتحدثون في همس، مُستغربين كيف يمكن لابن العمدة أن يتزوج من امرأة كنادية..

كانت الوجوه مُتجهمة، والعيون مليئة بالفضول.

رغم أنّ الزواج تم، ولكنّه بقي زواجًا صوريًا، حيث لم يدخل فارس بناديه. كانت برهان، بذكائها، قد ساهمت في تهدئة الأوضاع، ولكن هذا لم يكن

سوى بداية لصراع أكبر. كانت تلك اللحظة علامة على بداية سلسلة من الأحداث التي ستكشف النقاب عن خفايا الروح الإنسانية، وستُختبر فيها قوة الحب والتضحية.

توجهت شوق بنظراتها نحو فارس، واستشعرت الحزن المتزايد في قلبها. كانت تدرك أنهما قد دخلا في صفقة محفوفة بالمخاطر، وأنّ طريقهما سيكون مليئًا بالعقبات. لكن في أعماقها، كانت تشعر بأنّ الحبّ، حتى في أحلك الظروف، يمكن أن يكون سلاحًا قويًا، يواجه بهما تحديات الحياة.

ومع تزايد الصراعات، استمرت الحياة في القرية، لكن الصمت الذي كان يحيط بنادية وفارس كان يشير إلى بداية قصة لم تُكتب بعد، قصة تحمل في طياتها آلامًا وآمالًا، وصراعات تنتظر من يتجرأ على مواجهتها.

....

مرت ساعات وأيام وشهور، وكانت الرضاعات تتوالى، تاركةً أثرًا غير مرئي في نفوس الأطفال، رابطًا عميقًا بين أرواحهم. في أعماقهم، كان هناك شعور غريب يجمعهم، وكأنهم بالفعل أصبحوا إخوة.
تراقب برهان المشهد، وعيناها مليئتان بالفخر والحزن.

توجهت شوق نحو نادية، وقالت بصوتٍ مليء بالعزم: "لن ندع أي شيء يؤذي أولادنا، سواء كانت لعنة أو غيره. يجب أن نكون قويتين، لأجلهم."
أومأت نادية برأسها، مُعبرةً عن تأييدها: "بالتأكيد، يجب أن نواجه أي تحدٍ معًا، وأن نحميهم من مصير لا ذنب لهم فيه."
لعل هذا العهد يكن السور الذي سيحميهم في مواجهة قسوة الأيام.
وشيئًا فشيئًا، بدأت الأُمّان تشعران بالقوة، وبتلك اللحظة، تولد في قلبيهما رابطٌ قوي يعكس المعاناة المشتركة والأمل في غدٍ أفضل.

هكذا، بدأ الأطفال رحلتهم في هذه الحياة، وهم يحملون سرًا لا يعرفونه، رابطًا يصعب فصله، فبينما كانوا يرتوون من حليب الأمّين، كانوا في الوقت نفسه يرتوون من دماء الحب والتضحية.

مرت الأعوام على القرية كأنها طيف عابر، بينما كانت الشمس تتساقط أشعتها بين أوراق الشجر كرقائق ذهبية. في الساحة الترابية، ركض الأطفال الثلاثة، سلطان وعلي وعادل، كأنّ الحياة لا تحمل لهم سوى البهجة. لكن خلف ضحكاتهم الطفولية، كان هناك سرٌ ثقيل، يتربص في الظل.

سلطان، بعينين تشعان بالحماس، قفز ليهزم علي في سباق، بينما عادل، بابتسامته الهادئة، كان المراقب الحارس، كأنه يحمل في صمته وعودًا

بالحماية. على الجانب الآخر، جلست أُمَّاهم تحت شجرة وحيدة، تتأملن هذا المشهد بمزيجٍ من الفخر والخوف.

قالت نادية بهمس:

- "وجوههم... لعلّ أحدهم يلاحظ الشبه مع غزل يومًا ما."

ردت شوق بصلابة:

- "لن يحدث هذا. سنخفي الحقيقة مهما كلفنا الأمر."

....

في ظهيرة يوم حار، حيث كانت الشمس تُلقي بأشعتها القاسية على أرض القرية، اجتمع سلطان وعلي وعادل تحت الشجرة الوحيدة في الساحة الترابية، يتبادلون المزاح والضحكات. فجأة، قاطع ضحكاتهم صوتٌ متهدج من الطرف الآخر للساحة. التفتوا ليجدوا صبيًا أكبر منهم، من كفر الغجر، يقترب منهم بخطوات ثقيلة، وعيناه تشعان بالعدوانية.

قال الصبي بصوتٍ خشن وهو يشير إلى سلطان:

- "سمعت أنك الأسرع في القرية. هل تجرؤ على مواجهتي؟"

قبل أن يرد سلطان، تقدم علي خطوة للأمام وقال بحزم:
- "لن يتسابق معك إلا إذا اتفقت معنا على القواعد."

الصبي ابتسم بخبث وأردف:
- "القواعد؟ القواعد هي ألا تخسروا وإلا سأريكم ماذا يحدث للجبناء."

كانت نبرة تهديده واضحة، لكن سلطان أصرّ على المواجهة. بدأ السباق، وبدا واضحًا أنّ الصبي الأكبر يتعمد دفع سلطان وإعاقة طريقه. فجأة، انزلق سلطان وسقط أرضًا بقوة، كاد الصبي أن ينفجر بالضحك، لكن قبل أن يُتم كلماته، قفز علي أمامه قائلًا بصوت غاضب:
- "لن تلمسه!"
بينما هرع عادل ليساعد سلطان على النهوض، وقف علي كحائط دفاعي أمام الصبي. حاول الصبي أن يدفعه، لكن عادل انضم إليهما وقال بحدة:
- "نحن معًا. إذا أردت أذيته، عليك أن تواجهنا جميعًا."

كان المشهد كافيًا لردع الصبي الأكبر، الذي تراجع بخطوات مترددة وهو يقول بامتعاض:
- "أنتم محظوظون لأنني لا أضرب الضعفاء!"
ثم غادر الساحة، تاركًا الأطفال الثلاثة يتنفسون الصعداء.

جلسوا معًا تحت الشجرة مجددًا، والعرق يتصبب من جباههم. نظر سلطان إلى علي وعادل، وعيناه تلمعان بالامتنان، وقال:
- "لم أكن أعرف أنكما مستعدان للقتال من أجلي."

رد علي بابتسامة واثقة:
- "لسنا ثلاثة، نحن واحد. إذا أراد أحد إيذاءك، فإنه يواجهنا جميعًا."

ابتسم عادل بهدوء وأضاف:
- "نحن إخوة، وسنبقى كذلك، مهما حدث."

في تلك اللحظة، أدرك الأطفال الثلاثة أن رابطهم لم يكن مجرد مصادفة، بل كان شيئًا أعمق، شيئًا لا يمكن كسره. كانت تلك الحادثة أول اختبار لوحدتهم، واكتشفوا فيها أنهم أكثر من مجرد أصدقاء؛ كانوا يدًا واحدة، مصيرًا واحدًا."

بدأت الشمس تهدأ، عاد الأطفال الثلاثة يجلسون تحت الشجرة، يتحدثون بصوتٍ خافت بينما يتناولون بعض التمر. على الطرف الآخر، كان هناك صبيان صغيران، أحدهما يبكي بحرقة، بينما الآخر يحاول تهدئته بلا جدوى. التفت علي نحوهم وقال:
- "ما الذي يحدث هناك؟"

نهض سلطان سريعًا وقال:

- "لنذهب ونرى."

اقتربوا من الصبيين بهدوء، وسألهما عادل بصوته الهادئ:

- "لماذا تبكي؟"

نظر الصبي الأكبر نحوهم بارتباك، ثم أشار إلى طبق معدني على الأرض فارغ تمامًا. قال:

- "سقط منا الطعام، ولم يبقَ لنا شيء لنأكله."

ثم أضاف بصوتٍ مهتز:

- "أمي لن تصفح عني. ستغضب لأنني لم أكن حذرًا."

تبادل الأطفال الثلاثة نظرات صامتة، ثم تحدث سلطان وهو ينظر إلى التمر في يده:

- "حسنًا، خذوا هذا. يمكننا مشاركة طعامنا معكم."

مدّ يده بالصحن نحوهم، تبعه علي ثم عادل، حتى امتلأ الطبق مجددًا بما كان بحوزتهم. تردد الصبي الأكبر، لكن سلطان دفع الطبق نحوه قائلًا:

- "لا تقلق، كلنا نرتكب الأخطاء. الآن، لا شيء يدعو للبكاء."

أخذ الصبي الطبق بخجل واضح، وبدأ يشكرهم بارتباك، بينما ظل سلطان يبتسم وكأن الأمر لا يستحق الشكر. عادوا إلى مكانهم تحت الشجرة، وقد

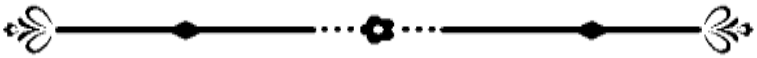

خيم عليهم صمت غريب، كأنهم جميعًا يفكرون في شيء واحد. فجأة، قال علي بصوتٍ منخفض:

"تتذكرون عندما كنا أصغر؟"

ابتسم عادل ابتسامة صغيرة، وأكمل:

"نعم، كنا نتشاجر على قطعة خبز واحدة. أمي قالت لي يومًا: 'الخير الذي تعطيه، يعود لك أضعافًا'."

هزّ سلطان رأسه موافقًا، ثم قفز واقفًا فجأة وقال بابتسامة واسعة:

"حسنًا، والآن؟ من سيكون أسرع في الوصول إلى النهر؟"

ركضوا جميعًا، كأنّ اللحظة الماضية قد ذابت في زحام ضحكاتهم، لكن بقاياها بقيت محفورة في عيونهم التي تحمل بريقًا من الرضا الذي لا يقال، بل يُشعر."

****

عودة حيلاء

قبل بزوغ الفجر، كانت حيلاء تمشي بخفة كأنما تطفو فوق الأرض، كأن كل خطوة منها كانت ترسم لوحة من الصمت والتخفي. كان وشاحها الداكن يخفي ملامحها ويُعزز غموضها، في حين كانت الرياح تهب برفق على وجهها، تحمل رائحة الصباح الباردة. كانت خطواتها سريعة وهادئة، مثل خفّة اللصوص المحترفين، تتجنب أي ضجيج يمكن أن ينبه أحدًا لوجودها، حتى وصلت أخيرًا إلى كوخ بيت وصيفة الدلالة.

طرقت الباب طرقتين مترددة، كأنما تنتظر دعوة غير مرحب بها. فتحت وصيفة الباب ببطء شديد، عيناها تلتقيان بعيني حيلاء، وكأنها كانت تتوقع مجيئها. دخلت حيلاء المكان بخطى حذرة، وجهها ينضح بالغضب والألم، نظرتها كانت تحمل ثقلًا من اللوم والشوق المكسور.

"لقد خدعتِنا!" نطقت حيلاء بصوت يحمل في طياته مرارة خيانة وألم فراق. كانت نبرتها ترتجف قليلًا، كأنما تختنق بكلماتها التي تود لو لم تكن مضطرة لقولها.

ابتسمت وصيفة ابتسامة خافتة، مزيج من الحزن يختبئ خلف نظرتها الثابتة، وقالت بهدوء متزن: "لم يحدث."

ارتفعت حدة صوت حيلاء، كلماتها أشبه بالسهام النارية التي تطلق في الظلام: "لقد قتلوها! لقد سمحتِ لهم بقتلها!"

تنهدت وصيفة ببطء، كان صوتها يحمل في طياته أصداء العمر الطويل والتجارب العميقة: "هي من اختارت أن تضحي بحياتها مقابل حياة ابنها. لم يكن لدينا خيار آخر."

اهتزت شفتا حيلاء بالغضب، وعيناها امتلأتا بالبريق الناري، وقالت بغضب مكتوم: "كان بإمكانك إيقافهم! كان بإمكانك أن تخبريهم الحقيقة وتنقذيها."

ردت وصيفة بصرامة، تعكس عيناها مرارة الحقيقة التي لم تتقبلها حيلاء: "لو أخبرتهم بالحقيقة، لكانوا قتلوها وقتلوني معها، حتى غزل قد فهمت ذلك ولم تخبر أحدًا بالحقيقة، كانت على يقين أن حديثها لن يغير من الأمر شيئًا."

تبدلت ملامح حيلاء من الغضب إلى الحنين والشوق، عيناها تتأرجحان بين الذكريات والواقع، سألت بصوت يكاد يختنق: "كيف حاله بعد كل هذه السنوات؟ كيف يعيش الآن؟"

أجابت وصيفة بثبات وهدوء يشبه صوت النسيم في لحظة سكون: "يعيش بين أخويه، ترعاه أُمَّان وأبٌ محبٌّ، ينعم بحياة آمنة بعيدًا عن كل ما كان يمكن أن يؤذيه. لقد صنعنا له فرصة ليعيش حياة لم يكن ليحلم بها لو كشفوا حقيقته."

تحولت ملامح حيلاء إلى خليط من الأسى والندم، شعورها بالعجز يتسرب إلى صوتها المرتجف: "وحُرم من أمه! ألم تكن تستحق أن تعيش من أجله، أن يشعر بحبها وحنانها؟"

ابتسمت وصيفة ابتسامة حزينة، وكأنها تتحدث إلى روح كانت تدرك مسبقًا أنها لن تستجيب، وقالت بهدوء: "إنه القدر يا حيلاء، ينقش أحكامه على جدران الزمن، ونحن لا نملك إلا التسليم بما كتب لنا."

تحول وجه حيلاء إلى مرآة تعكس الألم والأسى المتراكم، عيناها تلمعان بدموع محتجزة، همست بإصرار: "أريد رؤيته، أريد أن أطمئن عليه بنفسي ولو لدقيقة واحدة."

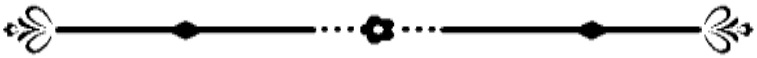

نظرت إليها وصيفة بعمق، وكان في عينيها مزيج من الحزم والشفقة، وقالت: إنه خطر كبير عليكِ وعليه. برهان لا تفارقهم وإن رأوكِ سيتعرفون عليكِ ولن يرحموكِ، ولا أظن أنكِ ستضحين بحياتك من أجله كما فعلت أمه."

ارتعش صوت حيلاء بالغضب والألم، وردت بحدة: "إنه ابن أختي، الشيء الوحيد الباقي لي منها، ألا تفهمين؟"

وضعت وصيفة يدها على كتف حيلاء بلطف، وقالت بصوت يشوبه العطف: "يكفيكِ أن تعلمي أنه بخير، أنه في المكان المناسب الذي لم يكن ليكون فيه لولا كل ما جرى. نحن قدمنا له فرصة النجاة، وهذا هو الأهم."

أغمضت حيلاء عينيها، تتأرجح بين الإيمان بالمصير والندم على الفرص الضائعة، وقالت بصوت مكسور: "لو أننا هربنا به قبل أن يحدث كل هذا، أو أننا تركناه وأنقذنا أختي من الموت."

هزت وصيفة رأسها ببطء، صوتها كان عميقًا وحازمًا: "ما الفائدة من 'لو'؟ ما حدث قد حدث يا حيلاء، ونحن الآن يجب أن نقبل بما كتب لنا ونمضي في حياتنا."

فتحت حيلاء عينيها مجددًا، شعور الإصرار يتجدد فيها، وقالت بإصرار ملحوظ: "لن أرحل قبل أن أراه، قبل أن أطمئن بنفسي، وإلا فلن أجد الراحة أبدًا."

نظرت إليها وصيفة بعمق، ثمّ قالت بصوت وديع لكن حازم: "إذا قررتِ المضي قدمًا، فكوني على علم بأنكِ تخاطرين بكل شيء. تذكري أنكِ وحدكِ ستتحملين العواقب."

خرجت حيلاء من عندها والغضب يشتعل في عينيها كالجمر المتقد، كانت الأنفاس ثقيلة والرغبة في الانتقام تتغلغل في صدرها. بعيدًا عن أنظار القرية، كان سامي ينتظرها، عينه تتفحص وجهها المليء بالعزم والألم. اقتربت منه بخطى متسارعة وأخبرته برفض وصيفة، فانعكست على وجهه علامات الحيرة.

قال سامي بقلق: "كيف يمكننا التصرف الآن؟ إذا اقتربت من دوار العمدة، سيلاحظونني."

ردت حيلاء وهي تحاول كتم غضبها: "وأنا إن اقتربت، سيقتلونني فورًا."

بدأتا في السير بخفة بعيدًا عن حدود القرية، قالت حيلاء بصوتها الذي يحمل مزيجًا من اليأس والإصرار: "علينا أن نخبر الأسد، هو الوحيد الذي يمكنه مساعدتنا."

تفاجأ سامي وقال بتردد: "هل نكشف السر بعد كل هذه السنوات؟"

أجابت حيلاء بثبات: "لم يعد لدينا خيار، سأحارب لأجل ابن أختي حتى لو كلفني ذلك حياتي."

جلست وصيفة تستعيد في ذاكرتها كل ما مضى، تتأمل ما جرى بعد رحيل حيلاء. كانت الأفكار تتلاعب بعقلها، تأخذها من موقف إلى آخر، وكأن كل ذكرى تمثل شوكة مغروسة في قلبها. تذكرت زياراتها المتكررة إلى خيمة غزل، حين كانت تأتيها بحجة الاطمئنان على حملها، لتراقب عن كثب وضعها الصحي وتنقل أخبارًا عن موعد ولادتها. كان بينهما أكثر من مجرد فضول؛ تلك الزيارات صنعت بينهما رابطة خفية، علاقة صداقة غير متوقعة وسط الدسائس والمكائد.

وذات ليلة، تحت ضوء القمر الباهت ونسمات الليل الباردة، كُشفت أسرار غزل. حكت غزل عن حقيقةٍ مؤلمةٍ، سرٍّ ظلّ طي الكتمان، لم تشاركه مع أحد سوى وصيفة. قالت لها بصوت مرتجف، وعيناها تغوصان في نظرات

العتاب والرجاء: "والد طفلي ليس مجهولًا، إنه معلومٌ لديّ". وأكملت لها قصتها.

وصيفة، برغم قوتها المعتادة، لم تستطع إخفاء مشاعرها لحظة اكتشاف الحقيقة المأساوية وراء قصة غزل؛ شعرت بتمزقها، بانهيارها الداخلي أمام هذا السر.

نظرت وصيفة في عيني غزل وكأنها تقرأ في صفحاتٍ من الألم المخبأ، مدّت يدها إلى غزل قائلة: "لن أتركك وحدك في هذا. سنضع خطة لإنقاذ هذا الطفل من أي سوء." تلمع في عينيها لمعة الأمل المتأججة، وفي تلك اللحظة لم تكن الكلمات مجرد وعود، بل تعهدات مغلفة بروح التضحية والإيثار.

بتوجيه من غزل، توجهت وصيفة إلى حيلاء، الأخت الصغرى لغزل، تلك الفتاة ذات الدهاء والحكمة. رسموا معًا خطة محكمة، حيث كان دور حيلاء أن تذهب إلى الدوار متظاهرة بأنّها غريبة تبحث عن مأوى وقوت يومها، لتقدم نفسها خادمةً تحت تصرفهم. وفي لحظةٍ متقنة التوقيت، نصحت وصيفة شوق بأن تتخذ حيلاء خادمة لها، لتدخل الخطة حيز التنفيذ بهدوء دون أن تثير الريبة.

لكن هذا لم يكن كل شيء. كان على سامي، زوج حيلاء، أن يتسلل بخبث إلى حياة نادية، يُقنعها بصدقه، ويقترب منها بتلك الابتسامة المزيفة

والوعود الكاذبة، ليبني معها جسرًا من الثقة المزيفة، استعدادًا للحظة الحاسمة. كانت وصيفة هي من وضعت خطة خلط الأطفال، تلك الخطة الخطيرة التي أملت أن تنقذ الطفل البريء من مصيرٍ قاتم، لم تكن وصيفة تتوقع أن الشر سيطال غزل نفسها، أن تكون ضحيةً لهذا المخطط الذي وضِع لإنقاذ حياة ابنها.

عادت من شرودها، مسحت دمعةً ثقيلة انزلقت على خدها، كأنها تهرب من عينٍ مُتعَبة. أخذت نفسًا عميقًا، تنفست ببطء وهي تهمس لنفسها وكأنها تواسي قلبها الحائر: "ربما أنقذتُ روح طفل بريء من المصير الأسود، لكن غزل... كانت هي من جلبت على نفسها هذا القدر المُوحِش."

علقت الكلمات في حلقها، لكنها كانت تعلم في أعماقها أن التضحية التي قدمتها لم تكن خالية من الندم. حملت عينيها إلى السماء، تبحث عن إجابة، عن سبب لكل هذا الظلم، لكن النجوم ظلت صامتة، لم تمنحها سوى صمتٍ يشبه مرارة قلبها.

****

الأسد

كانت خيمة "الأسد" تضيء بنيران صغيرة في وسطها، تضفي ضوءًا خافتًا متمايلًا على الوجوه المرهقة لحيلاء وسامي. وقف كلاهما عند مدخل الخيمة، يترددان لوهلة، يتبادلان نظرات مليئة بالتوتر والقلق. كأنّ كل منهما يبحث في عيني الآخر عن الشجاعة اللازمة لمواجهة كبيرهم "الأسد" الذي يمثل لهم ليس فقط زعيم الغجر، بل القانون والسيف الحاد الذي لا يلين. لم يكن قرارهم بالدخول إلى خيمته أمرًا سهلًا، فكل خطوة تقربهم من هذا المكان كانت تزيد من إحساسهما بالثقل في قلوبهم.

عندما تقدما أخيرًا نحو "الأسد"، كان يجلس على وسادة كبيرة من القماش الحريري، عيناه مثبتتان عليهما كأنه يستطيع اختراق أفكارهما قبل أن يتحدثا. كان جسده الضخم وكتفاه العريضتان تعطيانه هيبة استثنائية، وجعلت منه أشبه بتمثال من القوة، وكانت قسمات وجهه جامدة وصارمة كمنحوتة حجرية لا تعرف الرحمة. لم يفتح "الأسد" فمه، بل انتظر أن ينطقا، وكأنه يقول بصمته كل ما يلزم لإشعال الخوف في قلبيهما.

قال أخيرًا بصوت عميق يشبه دمدمة الرعد في ليلة عاصفة: "تتكلمان أو تصمتان، لن يفرق عندي. لكن الأفضل أن تبدأا بما يستحق حديثكما." كان في كلماته تحدٍ واضح وإشارة إلى أنه لن يضيع وقته في أمور تافهة.

تلعثمت حيلاء، قبل أن تخرج الكلمات من فمها وكأنها تدفع حملًا ثقيلًا: "يا كبيرنا، الأمر يتعلق بصبي، ابن غزل. نعم، أختي التي طردتها من جماعتنا منذ زمن بعيد... ولكن هذا الصبي ليس له ذنب في غضبك على أمه، فقد ماتت، ضحت بحياتها من أجله، ولم تعد بيننا."

تحركت عضلات وجه الأسد قليلًا، وظهرت علامة استنكار طفيفة في عينيه، وكأنه يتذكر ماضي غزل بكل ما فيه من عار ومشقة، لكنه لم يتكلم. تابع سامي حديثه محاولًا جذب انتباه الأسد: "لقد أصابوا الصبي بلعنة ظالمة يا كبيرنا، تلك اللعنة التي رموه بها من دون وجه حق. هو ما يزال ابن الغجر مهما حدث."

رفع الأسد حاجبيه ونظر إليهما بنظرة حادة وكأنه يزن كلماتهما بعناية، ثم قال بلهجة أقوى من سابقها: "أتريدان مني أن أعود وأجمع هذا الصبي تحت جناح الغجر مرة أخرى؟ رغم كل ما فعلته أمه؟"

نظرت حيلاء إلى الأسد بتحدٍ صغير مختلط بالخوف وقالت: "نعم، نريده بيننا. لم يكن له يد فيما حدث، هو رائحة ذكرى أختي"

ظل الأسد صامتًا للحظة، ثم لمعت في رأسه فكرة فارتسمت ابتسامة جافة على شفتيه، تلك الابتسامة التي تشعرك بأنه يخفي أكثر مما يظهر. قال أخيرًا: "حسنًا، سأعيد الصبي إليك يا حيلاء، ولكن بثمن. عليكِ أن تسرقي لي لمدة شهر كامل، وتضعي غنائمك كاملة أمامي كل يوم، دون توقف."

شعرت حيلاء بوقع الشروط ثقيلًا على صدرها، لكنها أدركت أن لا خيار أمامها. نظرت إلى سامي، ووجدت في عينيه الإقرار بضرورة القبول. أومأت برأسها بالموافقة، والأسد أكمل قائلًا بصوت لا يقبل الجدل: "هذا الشهر سيكون اختبارًا لك، وخلاله سأضع خطتي لاستعادة الصبي إلى جماعتنا، لن أتركه ضحية بعد الآن."

مرت أيام الشهر كأنها سنوات ثقيلة على قلب حيلاء، كل يوم تستيقظ فيه مبكرًا تضع خطتها لسرقة ما يمكنها الحصول عليه من القرى المجاورة. كانت تعود في المساء إلى خيمة الأسد، ترمي غنائمها أمامه دون كلمة، تنتظر نظراته الباردة التي لا تشبع أبدًا من الطمع والاختبار.

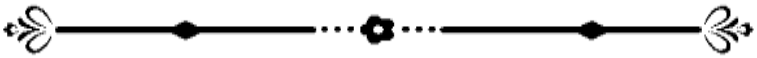

وفي اليوم الأخير من المهلة، وقفت حيلاء أمامه، وضعت بين يديه ما جمعته لهذا اليوم، ثم سألته وهي تحاول أن تخفي تلهفها: "يا كبيرنا، ماذا بعد؟ هل انتهى الشهر؟"

نظر إليها الأسد ببطء، وكأنه يقرأ في عينيها كل تعب الشهر الماضي، وقال بابتسامة غامضة: "انتظري حتى رجوعنا."

رفعت حاجبيها متفاجئة وسألته بتردد: "رجوعكم من أين؟"
اقترب منها الأسد حتى كاد يحرق بأنفاسه وجهها وقال بنبرة مهيبة: "سننصب المولد على أعتاب قريتهم، المولد سيجمعهم إلينا. فمن لم نقدر على الدخول إليه، سنجذبه إلينا."
"ولكن كيف سنعرفه من بين الثلاثة؟" سألها، كمن يبحث عن نقطة ضوء في عتمةٍ لا نهاية لها.

ابتسمت حيلاء ابتسامة ماكرة، وعيناها تتلألآن ببريق من الغموض، قبل أن تجيبه بثقة: "سأخبرك..."

حينها تذكرت غزل وهي تهبط بخفة بين الأطفال، كفراشة تُلقي ظلالها على الزهور، لكنها لم تكن تُقبّلهم بل كانت تضع علامتها. توقفت عند كل طفل، ثم وسمته وشمًا دائمًا على ذراعه الأيمن كعلامة مميزة، كانت تلك

العلامة عبارة عن نقاط، نقاط صغيرة تشبه الشامات، وبدت كل واحدة منها كأنها توقيع غير مرئي.

ثم تابعت حيلاء بنبرة خافتة وهادئة، وكأنها تبوح بسر عظيم: "في ذلك اليوم، رأيت بأم عيني، كان نصيبه نقطتين. لم يعرف هذا الأمر أحد سواي، ووضعت تلك الوشوم لتكون دليلها... إن طال الزمن ولم تلتقِ به إلا بعدما يكبر"

سكتت للحظة، وكأنها تستجمع قواها، ثم نظرت بعينيها الثاقبتين وقالت: "لم تكن غزل تعلم أن تلك الوشوم ستكون وصيتها الأخيرة، قبل أن يُطفئوا أنفاسها دون رحمة."

....

في ليلة افتتاح المولد، كان الجو مليئًا بالأصوات العالية والموسيقى الصاخبة، الأضواء المتلألئة والألعاب النارية التي تنير السماء. تجمعت الحشود حول المشاهد المثيرة للغازيات وهن يتراقصن حول النار، حركاتهن كانت أشبه برقصة السحر تجذب بها الأنظار وتحتجز الأرواح.

كان مشهد المولد أشبه بمعركة خفية تخوضها الغازيات، وهن يلقين بشعورهن الطويلة في الهواء، ينثرن سحرهن على رجال القرية الذين فقدوا

عقولهم في حضرة هذا السحر الأسود. كانوا ينسون أنفسهم كل ليلة مع الغازيات، وكأنما وجدوا في هذا المولد ملاذهم من كل هموم الحياة.

أما نساء القرية، فكنَّ يقفن بعيدًا، يراقبن من بعيد بوجوه محمرة من الغضب والأسى. تجمهرن أمام دوار العمدة، وهن يصرخن ويحتججن: "أوقفوا هذا الجنون! كيف تسمحون لهذا العهر بأن يستولي على رجالنا ويدمر حياتنا؟"
كان العمدة يقف عاجزًا، تتلاشى كلماته أمام حدة غضبهن، يدرك في قرارة نفسه أنه لا يملك القوة لإيقاف هذا التيار الجارف.

كان الأسد يجلس على رأس المولد، مشهد مهيب يجذب الأنظار، حيث تمتد الأضواء الملونة في كل الاتجاهات، وتنتشر الأهازيج في الأجواء. لم يكن من عادته أن يذهب مع الغجر إلى المولد، بل كان يفضل الانتظار في قريته حتى يأتوا إليه بالغلال. لكن تلك المرة، ارتأى أن يذهب على رأسهم ليتأكد من إتمام المهمة بنجاح.

أخذ الأسد ينظر حوله، مندهشًا من الحماس الذي كان يسود القرية. كان الرجال في كل مكان، يلهثون خلف الغازيات، بينما الأطفال يتراكضون في الشوارع، مستمتعين بالألعاب والحلويات. لم يكن من الصعب إقناع أهل القرية بإقامة المولد، فكلما اقترب موعد الاحتفال، زاد الشغف في قلوبهم.

استغرق الأمر دقائق معدودة فقط لإقناعهم بالاحتفال، كأنما كانوا ينتظرون هذه اللحظة بفارغ الصبر.

بدأ أحد الرجال بالتنقل، وهو يحمل في يده طبلة كبيرة، جعلت صداها يتردد في أرجاء القرية: "هذا هو الوقت المناسب لنستمتع ونرقص!"

لكنّ الأسد كان يدرك أنّ المهمة الأصعب تكمن في جذب الأطفال إلى المولد. فكانت فكرة استدراجهم بالألعاب بمثابة خطة بارعة، فهو يعرف أنّ في عقول الأطفال فضولًا لا يمكن مقاومته.

"دعونا نلعب! هناك ألعاب جديدة!" قال أحد الغجر، وهو يحمل دمى ملونة تتلألأ تحت ضوء المولد. "تعالوا، تعالوا، هناك جوائز!"
بين الزحام والضجيج، كان الأطفال الثلاثة، سلطان، علي، وعادل، يتحركون بحذر. كانوا يعرفون أنّ برهان تراقبهم كالذئب الذي لا يُفلت فريسته، لكنهم استغلوا الفوضى ليفلتوا من قبضتها أخيرًا. برهان كانت دائمًا ما تبقيهم قريبين منها، خوفًا عليهم من طيشهم، لكن هذه الليلة كانت مختلفة.
عندما بدأت الألعاب في جذب انتباه الأطفال، بدأ الغجر يتسابقون للاستحواذ على انتباههم. وكان أحدهم يركض بين الأطفال، ينادي بأصوات عالية: "من لديه الشجاعة ليلعب معنا؟"

أغرتهم لعبة مصارعة الذراعين، تلك اللعبة التنافسية التي يتم فيها محاولة كل لاعب التشمير عن ذراعه ودفع ذراع الآخر إلى الأسفل باستخدام القوة والتحمل. لعبوها وفرحوا بفوزهم..

بينما كانوا يتجولون بين مشاهد المولد، لم يستطع سلطان مقاومة الجذب الساحر للغازيات ووجوه الرجال المستسلمة، اقترب من حلقة الرقص، وعيناه مفتونتان بالبريق، وعندما حاول علي وعادل اللحاق به، اختفى بين الجموع كأنه تلاشى في الهواء.

بحثا عنه في كل زاوية وزاوية، نادَيَا باسمه حتى بحّ صوتهما، لكن دون جدوى. شعرت عيونهما بالحرقة، قلباهما يملؤهما القلق والخوف.

بينما كانت الأجواء تشتعل بالمرح، كانت هناك عيون خفية تراقب الموقف. "هذه فرصتنا!" همس أحد رجال الغجر لرفاقه، وهو يحدق في الطفل، "عليكم أن تأخذوه بعيدًا قبل أن يشك أي شخص."

سرعان ما قفز أحد رجالهم على حصان سريع، وأخذ الطفل أمامه. "أنت محظوظ اليوم، ستذهب في مغامرة!" قال له وهو يحث الحصان على الركض، في حين كان الطفل يضحك، غير مدرك لما يخبئه القدر له.

في خضم الفوضى، تبع الأسد بحصانه الحصان الراكض بالطفل، قبل أن ينكشف أمر اختفائه"، فكر في نفسه، وكان قلبه ينبض بشدة. "إذا علموا بما حدث، فلن يسامحونا."

خلال لحظات، كانت عملية الاختطاف قد تمت بنجاح. انطلقوا بعيدًا عن القرية.

بعد ساعات من البحث المحموم، عاد علي وعادل إلى القرية، وعيونهما متورمة من الدموع. وقفا أمام الدوار وقالا بصوت مرتجف: "لقد ضاع سلطان... ضاع بين الغازيات والمولد، لا نعلم أين ذهب!"

"أين سلطان؟" صرخ فارس بابنيه علي وعادل، وقد شعر بالخوف يتسلل إلى قلبه.

وانطلقت الفوضى في كلّ الاتجاهات، انقلبت القرية رأسًا على عقب بحثًا عنه. بدأت العائلات في البحث، والدعوات ترتفع إلى السماء: "ابني، أين أنت؟

اجتمع رجال القرية في ساحة المولد، متسائلين عما حدث. "لقد قلبنا المولد شبرًا شبرًا، ولم نجد له أثرًا!" قال أحدهم، موجهًا أصابعه نحو المولد "هل يمكن أن يكون قد ضاع في الزحام؟"

"يجب أن نتفقد جميع الأماكن"، اقترح آخر. "علينا أن نتأكد أنه لم يُخطَف."

اجتمع الجميع على الفور، وبدؤوا في البحث في كل زاوية وركن. لكن كلما بحثوا أكثر، كلما زاد قلقهم. لم يكن الأمر مجرد فقدان طفل، بل كان الأمر يتعلق بسلامة القرية ككل.

تتالت الصرخات، وتعالت الأحاديث: "لن نترك حجرًا دون أن نقلبه، يجب أن نجد سلطان!" وفي خضم تلك الحالة من الفوضى، بدأت الأسر تتجمع حول بعضهم، مشدودة إلى همسات الأمل والخوف.
فكروا في الخطوات التي يجب اتخاذها، ولكن كانت الهمسات تتصاعد، والقلوب تتراقص على أنغام الفزع، ليُصبح المولد منارة للقلق بدلًا من الفرح.
حوصر المولد بمن فيه لمدة ثلاثة أيام من أهل القرية لعلهم يخرجون الطفل خوفًا على أنفسهم.
وبعد الحصار وفقدهم للأمل طُردوهم من القرية وتم تفتيش رحالهم تباعًا ولم يجدوا للصبي أثرًا.

****

لقاء وحنين

سلطان، الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره، وصل إلى كفر الغجر وهو يرتجف. كانت عيناه مليئتين بالدهشة والخوف، لا يدري ما الذي سيحدث له بعد أن تم اختطافه بعيدًا عن قريته وعن حضن أمه. طوال الوقت، كان يتفاخر أمام أمه شوق ويؤكد لها أنه رجل يمكنه التصدي لأي خطر، وأنه قادر على حماية نفسه. لكن ساعة الجد، وجد نفسه عاجزًا، لم يستطع الدفاع عن نفسه أمام الخديعة.

سمح الأسد لحيلاء بلقائه بعد أن اقتنع بقدرتها على تهدئته، فاقتربت منه ببطء، رافقته بنظراتها الهادئة وهي تقترب بحذر. كان الصبي ينظر إليها بعينيه الواسعتين المليئتين بالخوف والشك، يتساءل عن سبب وجودها ولماذا هي هنا معه.

جلست حيلاء بجانبه بهدوء، ثمّ فتحت ذراعيها وأخذته في حضنها كأنما تعرفه منذ الأبد. شعرت بنبضات قلبه المتسارعة، تذكرت فورًا أختها التي راحت ضحية الظلم والادعاء.

"لا تخف، يا صغيري"، همست له بصوتها الحنون، تربت على رأسه برفق كأنما تهدهده: "أنا هنا لأحميك، لن أسمح لأحد بأن يؤذيك."

رفع سلطان عينيه ببطء نحوها، محاولًا تمالك دموعه، ثم قال بصوتٍ مختنق: "لكن لماذا أخذتموني؟ ماذا تريدون مني؟"

ابتسمت حيلاء وهي تحاول أن تمسح كل ذرة من القلق عن وجهه الصغير، وقالت: "لأنك مهم، يا سلطان. أنت أكثر مما تتخيل، وستعرف السبب يومًا ما. ولكن لا تقلق الآن، أنا هنا بجانبك."

أخفض سلطان نظره نحو الأرض، يحاول فهم ما يحدث، ثم تمتم بصوت خافت: "لقد أخبرت أمي أنني رجل، وأنني سأحمي نفسي من أي أحد... لكنني لم أستطع. لقد كنت خائفًا جدًا."

أخذت حيلاء نفسًا عميقًا، ثم رفعت وجهه بيدها بلطف لتنظر في عينيه مباشرة، وقالت: "الشجاعة لا تعني ألا تخاف يا سلطان. الشجاعة هي أن تعترف بخوفك وتواجهه، وأن تعلم أن هناك من يساندك. ونحن هنا لنقف إلى جانبك، ولن نتركك وحدك."

بدأ سلطان يشعر ببعض الأمان، وقد خفت رعشة جسده قليلًا. كانت كلماتها تخترق جدران خوفه وتبث فيه الطمأنينة. سألها بصوتٍ ما زال مرتجفًا: "أمي... هل ستأتي لتأخذني؟ هل ستعرف أين أنا؟"

ضحكت حيلاء ضحكة صغيرة ومؤنسة، وقالت: "بالطبع يا سلطان، أمهاتنا يعرفن كل شيء. أمهاتنا قويات، تمامًا كما أنت قوي. وأنا هنا الآن لأكون بجانبك حتى تعود إلى حضنها."

لم يكن سلطان يدري ماذا يقول، لكنّه شعر بأنّ قلبه أصبح أقل ثقلًا مما كان عليه قبل لحظات. ضم يديه الصغيرتين إلى صدره وقال بصوت خافت: "وإذا حاولوا إيذائي مرة أخرى؟"

ردت حيلاء بثقة، ولمع بريق في عينيها كأنها تحميه بحدقة عينها: "لن يستطيعوا يا سلطان، ليس وأنت معي. سأكون دائمًا هنا لحمايتك، وسأفعل كل ما بوسعي حتى لا يمسك أي أذى."

بدأت الكلمات تتدفق من قلبها قبل لسانها، وهي تضع يدها على رأسه وتهمس: "سترى في يوم من الأيام يا سلطان، أنّ القوة لا تأتي من عضلاتك، بل مِمَن يحبك ويحميك."

شعر سلطان بالأمان في حضن حيلاء، وهي تمسح على رأسه كما لو كانت تمسح عن ذكرياته الخوف، وتزرع فيه بذور الشجاعة التي كان بحاجة لها ليواجه واقعه الجديد.

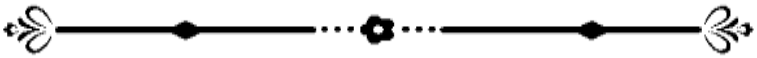

استمرت حيلاء في مسح دموع سلطان بيدها الحنون، وهي تطمئنه بكلمات دافئة تفيض منها السكينة. لكنّه، رغم كلماتها المطمئنة، ظل جسده الصغير يرتجف، والدموع تتساقط من عينيه بلا توقف، كأنما تحمل كل ما بداخله من خوف وحيرة. احتضنته بحنان أكبر، تشد على صدره كما لو كانت تود أن تخبئه من العالم كله.

ببطء، أخذت الدموع تقلّ وتتحول رعشته إلى أنفاس بطيئة، تعبث بها غفوة لا تقاوم. انحنت فوقه بلطف، وهمست له بهدوء: "نام الآن يا سلطان، ستصبح الأمور أفضل عندما تستيقظ."

غفا سلطان في حضنها، مستسلمًا لدفء حنانها وأمان كلماتها، كطفلٍ ضائعٍ وجد طريقه إلى ملاذه أخيرًا.

بينما غفا سلطان في حضن حيلاء، وهي تراقب وجهه الهادئ أخيرًا بعد انهياره من الخوف، ارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة، لكنها لم تكن مجرد ابتسامة حنان. رفعت رأسها ببطء ونظرت إلى الأفق حيث كانت الأضواء الباهتة للمولد تلوّح في الظلام، وتلمع في عينيها نظرة عميقة مليئة بالأسرار، كأنها تخفي شيئًا أكبر مما يعرفه الجميع.

ثم همست بكلمات لا تكاد تُسمع، وهي تراقب الصمت المحيط: "سيكون لك دورٌ كبير في الأيام القادمة يا سلطان... أكبر مما يتخيله أحد."

في تلك اللحظة كان سامي قد اطمأن أن زوجته قد حققت أخيرًا مرادها بعد أن جلبوا لها ابن أختها، فقرر أن يذهب في سفره للعمل في البندر الذي يحلم به ليلَ نهار، وقد أخّره كثيرًا كي يبقى بجانبها، راجيًا حين يعود أن تكون الأمور قد باتت هادئة مستقرة وأن يتم إغلاق صفحة غزل وأهل القرية إلى الأبد.. ودعها وراح.

****

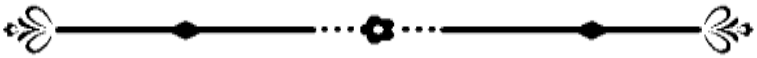

وداع وجراح

على أرض غرفتها حيث تندثر أصوات الصمت تحت وطأة الألم، جلست "شوق" على الأرض الباردة، جسدها متهدل وعيناها تحترقان بالدموع. كانت تهز رأسها بلا وعي وكأنها تحاول استيعاب ما حدث. بدأت الأصوات تتلاشى من حولها، وتحول العالم كله إلى صوت صراخها الحاد: "سلطان! أين ابني؟! كيف يجرؤون على خطفه؟!" وقف "فارس" بجانبها، يده تتصلب على جانبه، وعيناه تتقدان بالغضب، لكن ملامحه تحمل خليطًا من العجز والمرارة. حاول الاقتراب من شوق، يضع يده على كتفها المرتعش ليواسيها، لكنها أبعدته عنها بشراسة، وقالت بصوت مختنق: "أنت! أنت لم تفعل شيئًا لحمايته! وعدتني أنه سيكون بخير! أين كان وعدك الآن؟!"

تراجعت "نادية، تقف على مسافة قليلة من شوق، وهي تحاول أن تخفي شعورها بالألم كما تفعل دائمًا. يمتلك الحزن قلبها ووجهها صامد لا يبالي، حاولت تهدئة الأمور، تتحدث بصوت هادئ ولكن به قلق: "شوق، نحن جميعًا نشعر بما تشعرين به. يجب أن نفكر بهدوء، ونعمل معًا لاستعادة سلطان." لكن شوق نظرت إليها بعينين مليئتين بالاحتقار والغضب،

وكأن نادية لا يمكنها أبدًا أن تفهم وجعها. صرخت فيها: "إنه سلطان، ابني! إنه ابني!"

بينما كان الحوار يشتعل بين النساء، اقتربت "سعاد" أم شوق، جلست بجانب ابنتها واحتضنتها بقوة، وكأنها تحاول أن تلملم قطعها المكسورة. لم تقل شيئًا، فقط دموعها كانت تروي تلك الحكاية الحزينة بصمت. وقف فارس في مكانه، يحاول السيطرة على غضبه، قبضته تشد وتسترخي، وملامحه صلبة كالصخر. قال بصوت منخفض لكن مشدود بالعزم: "سأجلبه يا شوق، سأعيد ابننا مهما كلفني الأمر، ولن أدعهم يسلبون منا سلطان."

نظرت إليه شوق للحظة، وبدأت تتذكر، شعرت كأنّ روحها تسافر عبر الزمن. عادت بذاكرتها إلى لحظة كانت تجلس فيها مع سلطان تحت شجرة كبيرة في الفناء الخلفي للدوار. كان سلطان ينظر إليها بتلك العيون الصغيرة المليئة بالحياة، وابتسامته البريئة. قالت له في ذلك اليوم، وهي تلمس وجنته برفق: "أنت تشبه أبيك كثيرًا يا سلطان، حتى في عنادك. كأنك نسخة مصغرة منه" ضحك الصغير ورد قائلًا: "وأنا أريد أن أكون مثله دائمًا يا أمي." عادت شوق من تلك الذكرى إلى واقعها الكئيب، قلبها لم يحتمل الفراق والحسرة، عينان خاليتان من الحياة، وصوتها أصبح

أضعف من الهمس. نظرت إلى فارس ونادية وسعاد، ثم همست: "لا أستطيع العيش بدونه... لقد كان كل شيء بالنسبة لي... لقد كان حياتي." وفي لحظة صمت رهيبة، توقفت أنفاس شوق، عيناها الباكيتان تحدقان إلى الأفق البعيد بلا حراك، وقد انهار جسدها ببطء بين ذراعي سعاد، وكأن روحها غادرت جسدها بحثًا عن ابنها المفقود.

سقط فارس على ركبتيه بجانب جسدها البارد، وضرب الأرض بيده صارخًا باسمها بينما كانت نادية تبكي بصمت، وملامحها شاحبة من هول ما رأته. أمسك فارس بيد شوق الخالية من الحياة، ووجهه مليء بالندم والأسى، بينما كانت سعاد تحتضن جسد ابنتها، تشعر وكأن قلبها ينفطر ببطء على تلك الأم التي ماتت حزنًا وكمدًا على ابنها المخطوف.

مر اليوم بثقله بعد تشييع جثمانها وتبع اليوم أيام.

في قلب الدوار، حيث كانت الحياة تتدفق يومًا ما بأصوات الأطفال وضحكاتهم، ساد الصمت بيد تلك الفاجعة التي حلت. أصبح الدوار أشبه بمقبرة مفتوحة، الأرض تنبض بالحزن والأشجار الخضراء تلوح وكأنها تشارك في النحيب. كان كل شيء حوله ينطق بالأسى، حتى نسيم الهواء الذي كان يمر بين الجدران بدا وكأنه يتنهد بألم.

في زاوية مظلمة من الدوار، جلست سعاد بجلبابها الأسود الثقيل، الذي بدا وكأنه يغلفها بالحداد والحزن. كانت عيناها محمرتين من كثرة البكاء، ووجها الذابل يعكس الألم والحسرة. كانت تضرب كفيها على ركبتيها وتهمس بنبرة مكسورة بصوت يكاد لا يسمعه إلا الأرض التي تجلس عليها: "يا حسرتي عليكِ يا بنتي، يا غاليتي، يا نور عيني... كيف أقبل بفراقك؟ كيف أصبر على غيابك؟"

تحتضن بين يديها وشاحًا قديمًا لشوق، تغمره بين ذراعيها كأنها تحاول احتضان روح ابنتها التي فارقت الحياة. لم يكن الوشاح سوى قطعة من الماضي الذي تحطم أمام عينيها، لكنه كان يحمل رائحة شوق، رائحة الأمان والذكريات، رائحة الحبّ الذي كانت تهبه لابنتها.

تمتمت سعاد وهي تنظر إلى السماء بعينين غارقتين في الدموع: "يا رب، لماذا أخذتها مني؟ ألم يكن هذا الألم كافيًا؟ كيف أحتمل أن أعيش بعد رحيلها؟ لقد كانت عمري وروحي... كانت حياتي، ليتك أخذتني وتركتها تنعم بشبابها"

صوتها اختنق وسط بكاء مكتوم، وهي تضغط بيدها على صدرها وكأنها تحاول أن تمنع قلبها من الانفجار، ثم تابعت بشهقاتها المتقطعة: "يا رب، لو تستطيع دموعي أن تعيدها لي، لبكيت حتى آخر نقطة من دمي... يا حسرتي عليكِ يابْنتي... كنتِ زينة الدار وبهجتها."

فارس كان يقف في الجهة الأخرى من الدوار، يحاول أن يتماسك، لكن ملامحه حملت عبء الفقد والأسى الذي لا يمكن وصفه. نظر إلى سعاد من بعيد، وهو يرى حجم الألم الذي يأكل قلبها، فتساقطت دموعه بلا وعي وهو يقترب منها.

جلس بجانبها، وعيناه لم تتركا الأرض، قال بصوت خافت كأنه يحمل ثقلًا لا يحتمل: "خسارتنا كبيرة يا خالتي سعاد... لا كلمات تصف وجعنا. كانت شوق هي القلب النابض في هذا الدوار، والآن، بات كل شيء خاويًا بدونها."

نظرت سعاد إلى فارس، وارتعشت شفتيها من شدة الألم، وقالت له بصوت متهدج: "يا فارس، لو كنت أعرف أن الموت سيخطفها من بين أيدينا، لظللت أحتضنها حتى لا تأخذها مني هذه الدنيا الظالمة... ليتني كنت أستطيع أن أعطيها قلبي لتحيا، ولا ترى هذا اليوم."

ثم عادت سعاد إلى بكائها وهي تشلشل بالوشاح وترده كأنها تواسي نفسها: "يا شوق، يا نور عيوني... لن أنساكِ أبدًا. حتى لو نساني الزمن وتجاهلتني الأيام، لن أنساكِ... ستظلين في قلبي، وفي كل زاوية من هذا الدوار."

في تلك اللحظة، شعر فارس بثقل الفقد يتضاعف، ولم يستطع كبح دموعه. نظر إلى سعاد مرة أخرى، وامتدت يده نحوها ليمسك بيدها المرتعشة، وقال بصوت حزين ولكنه حازم: "خالتي سعاد، سنعيد سلطان مهما كان الثمن. لن أسمح بأن يذهب تعب شوق ودموعكِ سدى. سأفعل

كل ما بوسعي لأجعلها ترتاح في قبرها، ولأعيد سلطان إلى هذا الدوار، حيث يجب أن يكون."

مسحت سعاد دموعها ببطء، ونظرت إلى فارس بعينين مليئتين بالألم لقد ماتت ابنتي ولن يعيدها شيء، ثمّ نهضت وعادت إلى بيتها تبكي طول الطريق.

وبينما تراجع الجميع، تقدمت نادية نحو فارس ببطء، عيناها ممتلئتان بالحزن والأسى. جلست إلى جانبه، تضع يدها برفق على كتفه. همست له بصوت مليء بالحنان والتعاطف: فليرحمها الله ويغفر لها "فجأة، وكأن كل القوة التي كان يتشبث بها قد تلاشت، انهار فارس بين ذراعيها، وبكى بكاءً مريرًا. دموعه تغمر وجهه وكأنها تذيب فيه كل تلك القسوة والصلابة التي كان يحاول إظهارها.

ضمت نادية فارس إليها أكثر، وبدأ قلبها ينبض لأول مرة بشعور جديد تجاهه. شعرت كأنها تراه للمرة الأولى، بإنسانية وعاطفة لم تكن قد لمستها من قبل. تمنت لو تستطيع انتزاع الحزن من قلبه، لو تخبئه في قلبها وتحميه من كل هذا الألم.

همست له بصوت لا يكاد يسمع: "لو أستطيع، لفعلت أي شيء لأخفف عنك هذا الوجع. أريدك أن تعلم... أنك لست وحدك في هذا."

في تلك اللحظة، نبض قلبها بحب صادق تجاهه، حب لم تكن تتوقعه أو حتى تعرف أنه يمكن أن ينمو في ظل كل هذا الألم.

كانت الأجواء ثقيلة ومليئة بالكآبة. الغرفة التي كانت تضجّ بضحكات الصغار وأحاديث شوق الحنونة، أصبحت الآن مكانًا صامتًا، كأنها مدينة مهجورة.

الصبيان "عادل" و"علي"، كانا يجلسان بجانب بعضهما البعض على السرير، وجوههما الصغيرة معبّرة عن ألم يفوق عمرهما. كان عادل يبكي بصوت مكتوم، يحاول أن يمسح دموعه الصغيرة بيديه الصغيرتين، بينما علي يحدق في الأرض، وعيناه تحملان نظرة فارغة وكأنه لا يستطيع استيعاب حقيقة ما حدث.

فجأة قال عادل بصوت مخنوق ومشوب بالبكاء: "أين أمي شوق يا أبي؟"

نظر علي إلى أخيه نظرة مليئة بالحزن والأسى، ثم قال بصوت خافت، وكأنه يحاول أن يقنع نفسه بالكلمات: " أمي شوق لن تعود، لقد رحلت إلى السماء عند ربنا.

كانت الدموع تسيل على وجه عادل، الذي لم يتمكن من كبح بكائه أكثر، وبدأ ينادي بصوت يملؤه الألم: "أمي شوق... أمي شوق... أنا أشتاق لكِ! لماذا تركتِنا؟ لماذا لا تأتين؟"

اقتربت نادية منهما وجلست بجانبهما، ضمتهما إلى صدرها بقوة وهي تشعر أن قلبها يكاد ينفطر من حزنهم. كانت تحاول أن تحتوي ألمهما وحزنهما، تمسح على رأسيهما بحنان وهي تقول بصوتٍ يفيض بالمحبة: "أعلم أنكما تفتقدان شوق كثيرًا، وأنا أيضًا أفتقدها مثلكما تمامًا.

علي الذي كان يحاول أن يكون قويًا أمام أخيه، انهار في حضن نادية وهو يهمس بصوت مرتعش: "كانت أمي شوق دائمًا تقول لي أننا سنبقى معًا، أنني سأحمي عادل وسلطان. كيف أحميهم الآن وهي ليست هنا لتساعدني؟"

بينما كان فارس يراقب المشهد، امتلأت عيناه بالدموع، ولكنه حاول أن يبقى قويًا لأجل أبنائه. اقترب من نادية والصبيين وجلس بجانبهم، وضع يده على كتف علي وقال بصوتٍ متحشرج: "أمك ستكون دائمًا في قلوبنا، ونحن سنبقى معًا، وسنكون أقوياء لأجلها. سنحمي بعضنا البعض كما كانت تريد."

في تلك اللحظة، شعرت نادية بأنّ حبّها لفارس وأبنائها ينمو أكثر وأكثر، ووسط ذلك الصمت الذي يغلفه الألم، تشبث الولدان بنادية وكأنها ملاذهما الآمن، والشخص الوحيد الذي يأمنان في حضنه فهي أيضًا أمهما كما كانت شوق، كلاهما كانتا أمًا لثلاثتهم.

وبينما كانت نادية تحتضن صغيريها ودموعها تتدفق في صمت، شعر فارس بثقل العالم ينهار عليه. نظراته تحمل مزيجًا من الحزن والندم، إذ لم يكن

يعلم كيف يمكنه تعويض هذا الألم، أو كيف سيتحمل فراق شوق وضياع ابنهما سلطان.

فجأة، تعالت أصوات في الأفق. تحولت الأنظار نحو الدوار، حيث تجمع عدد من أهل القرية، تنقل بينهم همسات القلق. ثم اقترب أحد الرجال، يبدو متوترًا، وصرخ بصوت مرتفع:

"سمعت أنّ هناك من يعرف شيئًا عن سلطان! علينا أن نتجمع ونبحث عنه."

تغيرت ملامح فارس، وفهم أنه قد يكون لديهم خيط صغير يقودهم إلى ابنهم. التفت إلى نادية وابتسامة مشوبة بالأمل ترتسم على وجهه، كأن عزمًا جديدًا تولد في قلبه. بينما كانت نادية تتطلع إلى صغيريها شعرت بانتفاضة قوية في روحها، كأن الألم تحول إلى دافع للقتال.

لكن قبل أن يتمكن أي منهم من اتخاذ خطوة، ارتفع صوت غريب في الجو، كأن رياح الماضي تهمس لهم بشيء. همست نادية للولدين، بينما كانت عيونهما متسعة من الخوف: "لا تخافا، سنجده معًا."

تجمع الناس حولهم، وبدأ الأمل يتأجج في أعماقهم، لكن القلق ظل يسيطر على الأجواء. كان الأمر وكأنهم يستعدون لمعركة لا يعرفون نتائجها، لكنهم كانوا مصممين على مواجهة المصير، حتى لو كان يحمل لهم مفاجآت قاتمة.

وفي تلك اللحظة، أدرك الجميع أنّ الأمان قد اختفى من حياتهم، وأنّ العاصفة الحقيقية لم تبدأ بعد. كل ما كانوا يحتاجونه هو شجاعة تخرج من أعماق قلوبهم، لأنهم على وشك خوض رحلة ستغير مجرى حياتهم إلى الأبد.

بدأ القلق يتسلل إلى أركان القرية كالدخان الذي يتصاعد في صمت، لكنه ينتشر بسرعة ويخنق الأنفاس. أهل القرية كانوا يتجمعون حول الساحة المركزية، والهمسات تتزايد شيئًا فشيئًا بين الرجال والنساء. كان الغضب والحيرة يجتاحان قلوبهم، الجميع يعلم أن شيئًا غير طبيعي قد حدث. سلطان، الطفل الذي اختفى فجأة، أصبح محور الحديث في كل زاوية.

وقف العمدة في وسط الساحة، يحيط به رجاله، وكان القلق واضحًا على ملامحه. على الرغم من محاولاته السابقة للسيطرة على الأوضاع في القرية، كانت هذه الحادثة تكسر توازنه الداخلي. اختفاء سلطان لم يكن مجرد حادث عادي؛ بل كان له أبعاد خطيرة قد تزعزع استقرار القرية بأكملها. بصرامةٍ وهدوء مصطنع، رفع العمدة صوته "سنجد سلطان. علينا أن نكون حذرين، لكن حاسمين."

تقدّم منه رجلٌ طويل القامة، ذو لحية رمادية، وقال بنبرة قلقة: "هل تعتقد أن الغجر لهم يد في هذا؟"

صمت العمدة للحظة، ونظراته كانت تتجول بين الوجوه المتوترة من حوله يخفي سره في صدره "لكن لا يمكننا توجيه الاتهام دون دليل واضح."
قطع حديثهم رجل آخر، كان يبدو عليه الغضب والارتباك، "لكن لدينا كل الدلائل! الغجر هم من أخذوا سلطان، وكلنا نعلم ذلك! لماذا نتردد؟"
ازدادت التوترات في الساحة، والهمسات تحولت إلى جدالات. كان الخوف يتغلغل في قلوب الجميع، والخوف هو الوقود الذي يشعل العنف. النساء اللواتي كن يجلسن على أطراف الساحة، بدأت تظهر على وجوههن ملامح القلق العميق، وهن يراقبن الرجال يتجادلون حول ما يجب فعله.

تقدم فارس، وجهه متجهم وعيناه تملؤهما الغضب: "إذا لم نتحرك الآن، قد نكون في خطر أكبر. من يعلم ما يخطط له الغجر؟

توقفت كلماته للحظة، يترقب رد أبيه، تنفس العمدة بعمق، ثمّ قال بحزم: "لا يمكننا المجازفة بشن حرب على الغجر دون التأكد. الغضب لن يحل المشكلة، لن نتحرك إلا في الوقت المناسب، فلا نريد إشعال نارًا لا نستطيع إطفاءها."

....

بعد شهر كان سلطان قد اعتاد على الأيام وصنع اتفاقًا مع الوقت ليمر عليه بدون حنين لأهله حتى جاءت اللحظة التي أخبرته فيها حيلاء بالماضي وأطلاله والحقيقة التي لم يكن يعلمها.

جلس سلطان في زاوية الخيمة، قدماه متشابكتان وذراعاه ملتفان حول جسده، ينظر إلى الأرض وكأنما يبحث عن أجوبة هناك. عيون حيلاء لم تتركه، كانت ترقبه بصمت، وعيناها تحملان مزيجًا من الحنان والغضب المكبوت.

قالت حيلاء بصوت هادئ لكن عميق: "أعلم أنك غاضب وخائف، يا سلطان. لقد أُخذت من قريتك دون أن تفهم السبب. لكن يجب أن تعلم أنّ هذا ليس إلا جزءًا من الحكاية."

رفع سلطان عينيه نحوها ببطء، وكان في صوته ارتجاف من الغضب والارتباك، "أريد أن أفهم، خالتي. أريد أن أفهم لماذا قتلوا أمي غزل. لماذا لم أتمكن من حمايتها؟"

كان الرابط الذي قد نشأ بينهما في تلك الأيام القليلة سهل عليه تصديق حكايتها والاقتناع بها.

اقتربت حيلاء من سلطان وجثت على ركبتيها أمامه، ثمّ وضعت يدها بلطف على كتفه، "قتلوا غزل لأنها كانت تهديدًا لهم. كانت أقوى مما يتصورون، وأذكى مما يحتملون. كانوا يخشون من نبوءة تقول إن ابنها سيأتي ليدمر كل ما بنوه من ظلم وخيانة."

تسارعت أنفاس سلطان، وشعر أنّ شيئًا يتغير داخله، "نبوءة؟! أنا لا أفهم، ما علاقة أمي بكل هذا؟"

تنهّدت حيلاء، وعيناها تلمعان بحزن دفين، "أنت ابن غزل، ابن المرأة التي كانت ستهدم كل ما بنوه، لم يكن أمامهم سوى التخلص منها، لكنهم لم يعلموا أنك ستنجو وأنك ستكون هنا معي، مستعدًا لتغيير القدر."

كان سلطان يستمع لكلمات حيلاء بانتباه، وبدأ يشعر بثقل الكلمات في قلبه. فجأة، انفجر قائلًا: "لكن لماذا لم تقاوم؟ لماذا لم تقف في وجههم؟ لماذا لم تحارب؟"

هنا تغيرت ملامح حيلاء، وكأنما ارتدت قناع القوة والحزن معًا، "غزل لم تكن وحدها يا سلطان، كانت تكافح من أجل حياتك. لقد ضحت بنفسها لتبقيك بعيدًا عن أيديهم. لو كانت قد واجهتهم، لكانوا قتلونا جميعًا، لكنّها اختارت التضحية بكبرياء لتحميك."

ساد الصمت للحظات، قبل أن يضيف سلطان بصوت خافت: "أمي كانت شجاعة، وأنا كنت مجرد طفل لا يعرف شيئًا."

نظرت إليه حيلاء بحدة لكن بلطف أيضًا: "لا يا سلطان، لست مجرد طفل. أنت ابن غزل، وتحمل في داخلك القوة والشجاعة التي تركتها لك. حان الوقت لتتعلم كيف تحارب، كيف تدافع عن نفسك وعن ذكرى والدتك."

تركته حيلاء يحدق في اللهب الذي يتراقص أمامه كأنه يروي قصة من قصص الألم والأمل. كانت ذكريات والدته غزل تتدفق في ذهنه كالشلال كما حكتها له حيلاء مختلطة بصوت ضحكاتها ودفء حنانها، تتلاشى سريعًا في مشاهد رعب لحظة تخيله موتها. شعر بضيق في صدره، غضب مكتوم يتراكم داخله، يتصارع مع رغبته في البكاء، لكنّه قرر كبت دموعه، مثلما كبت غضبه.

بعد سكون الليل تحرك وخرج متخفيًا من خيمته، شق طريقه بصمت بين الأشجار الكثيفة التي تحيط بكفر الغجر. لم يكن يعرف الطريق جيدًا، لكن قلبه كان يدق بعنف، يدفعه الخوف والرغبة في الهروب من هذا المكان الغريب الذي وجد نفسه فيه.

"لا أستطيع البقاء هنا... يجب أن أعود إلى قريتي"، تمتم لنفسه وهو يتقدم بحذر، متفاديًا الأغصان اليابسة التي قد تصدر صوتًا ينبه أحدًا لوجوده. أنفاسه كانت متسارعة، ويداه ترتعشان، فكل خطوة كانت تقوده إلى

المجهول، لكنّه كان مستعدًا لتحمل أي شيء طالما أنه بعيد عن هؤلاء الغرباء الذين لا يعرف نواياهم الحقيقية.

فجأة، سمع صوتًا حادًا يخترق هدوء الليل. توقف قلبه للحظة، وأدرك أنّ أحدهم قد اكتشف أمره. حاول التسلل بعيدًا، لكن قبل أن يبتعد بخطوات قليلة، سمع صوتًا آخر أكثر قربًا. "إلى أين تظن أنك ذاهب، يا ولد؟"

توقف سلطان في مكانه، وارتجف جسده من الخوف. لم يكن بحاجة إلى النظر ليتأكد، لقد عرف الصوت. إنه زعيمهم.
استدار ببطءٍ، ووجده يقف على بعد خطوات منه، يتفحصه بعينين حادتين كالسيوف.

"أنا... أنا فقط أريد العودة إلى قريتي"، تمتم سلطان بصوت منخفض، محاولًا السيطرة على ارتجافه.

الزعيم لم يبدُ غاضبًا، لكنّه كان يحمل ملامح صارمة، تتماشى مع بنيته القوية. تقدم نحوه بخطوات بطيئة وثابتة، وعيناه لم تفارقان سلطان.
"قريتك؟" قال الزعيم بنبرة هادئة ولكن محملة بالسخرية: "قريتك هي

التي سلمت أمك غزل للموت. قريتك التي تكره الغجر وتخاف منهم. وتريد العودة إلى هناك؟"

لم يستطع سلطان الرد في البداية، فقد شعر وكأنّ الزعيم يخترق بجملته حاجزًا من الذكريات المؤلمة. نظر إلى الأرض، يحاول البحث عن كلمات مناسبة، لكنّه شعر بالعجز. أخيرًا، قال بصوت متردد: "لكن... لا أستطيع البقاء هنا. لا أفهم ما يحدث. كل شيء غريب."

ضحك الزعيم ضحكة خافتة لكنّها ثقيلة، وقال وهو يقترب أكثر حتى وقف أمامه مباشرة: "الغريب هو أنك تظن أن قريتك آمنة. أن تعود هناك كأن شيئًا لم يحدث. لكن، دعني أسألك، هل تعرف لماذا قتلوا والدتك؟"

رفع سلطان رأسه ببطء، وعيناه متسعتان بالغضب.
كانت تهدد سلطتهم. وهم لم يقبلوا بذلك.
والآن بعدما أخذناك من هناك فلا بد وأنهم علموا هويتك بعدما كنت متخفيًا بين أولادهم كما خططت غزل، هل تعتقد أنّهم سيرحبون بك إذا عدت، وأنت في نظرهم لست سوى لعنة؟" الزعيم انحنى قليلًا ليكون وجهه قريبًا من وجه سلطان، وعيناه تنغرس في عيني الفتى كأنها تحاول انتزاع اعتراف.

سلطان شعر بأنّ الأرض تهتز تحت قدميه، وأنّ الهواء قد انسحب من رئتيه. "لكن... أنا لا أستطيع البقاء هنا... لست مثلكم. لست مثل الغجر."

عند هذه الكلمات، تغيرت ملامح الزعيم من الصرامة إلى شيء آخر، شيء يشبه الشفقة. وضع يده على كتف سلطان بلطف غير متوقع، وقال بصوت أخف: "لست منهم؟ لكنك أيضًا لست من القرية. دمك ليس نقيًا في أعينهم، يا سلطان. وستظل دائمًا عدوهم، سواء كنت غجريًا أم لا."
سلطان نظر في عيني الزعيم، وكان يرى فيهما مزيجًا من الحقيقة والمرارة. كانت الكلمات تتغلغل إلى داخله، تشق طريقًا في نفسه المثقلة بالخوف والارتباك. "ماذا أفعل إذًا؟" سأل بصوت يائس، وكأنه يبحث عن مخرج، عن شيء يمكنه الاعتماد عليه.

ابتسم الزعيم بخفة وقال: "أول ما يجب عليك فعله هو التوقف عن الهروب. القوة ليست في الهروب يا سلطان، بل في الوقوف والمواجهة. الهروب لن يمنحك السلام، ولن يعيد لك والدتك. ولكن البقاء هنا، والتعلم من الغجر، قد يمنحك فرصة لتحقيق العدالة التي تبحث عنها."
شعر سلطان بشيء من الأمل يتسلل إلى قلبه، لكنّه كان ما يزال مترددًا. "لكن كيف لي أن أقاتل؟ أنا لا أعرف كيف لي أن أكون شجاعًا وأنا وحدي"

"الشجاعة ليست في القوة البدنية فقط يا فتى. إنها في العقل، في الرغبة في مواجهة الظلم حتى لو كنت وحدك. سنعلّمك كيف تقاتل، كيف تدافع عن نفسك وعن حق والدتك. لكن عليك أن تكون مستعدًا للتعلم والصبر."

نظر سلطان إلى الأرض للحظات، ثمّ رفع عينيه مرة أخرى إلى الزعيم. هذه المرة، كان هناك شيء مختلف في نظرته. لم يعد الخوف يسيطر على ملامحه بالكامل. قال بصوت حازم رغم صغره: "سأبقى. سأتعلم. وسأحقق العدالة لوالدتي."

ابتسم الزعيم هذه المرة بابتسامة دافئة نادرة وقال: "هذا هو الكلام. الآن نبدأ رحلتك الحقيقية، يا سلطان."

مشيا معًا عائدين إلى كفر الغجر، حيث كانت السماء ما زالت مظلمة، لكن سلطان شعر لأول مرة منذ فترة طويلة بأنّ النور قد بدأ يشق طريقه نحو قلبه.

في الليلة التالية قررت حيلاء أن تبقى معه في خيمته تساعده على الثبات قالت بنبرة هادئة: "الألم الذي في داخلك، يا سلطان، يمكن أن يحطمك أو يبنيك. الخيار لك."

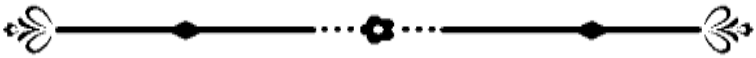

لم يرفع سلطان عينيه عن النار، لكن صوته خرج منخفضًا ومشحونًا بالعزم، "أريد الانتقام يا خالتي. أريد أن أعيد لكل من قتل أمي جزءًا من الجحيم الذي جعلوها تعيشه."

ابتسمت حيلاء بمرارة، وهي تضع يدها على كتف سلطان، "الانتقام شعور طبيعي يا صغيري، لكن يجب أن تكون ذكيًا. الانتقام الأعظم هو أن تجعل أعداءك يندمون على كل لحظة ظلموا فيها غزل. يجب أن تقاتل مثلما كانت غزل، بحكمة وشجاعة، لا بغضب أعمى."

استدار سلطان نحو حيلاء ونظراته تفيض بالغضب والحزن، "لكن كيف لي أن أكون مثلها؟"

أخذت حيلاء نفسًا عميقًا، ثمّ قالت: "غزل لم تتركك وحيدًا يا سلطان، لقد تركت فيك قوة وشجاعة أكبر من أي شيء تتخيله. كانت تعرف أنّ اليوم الذي ستقف فيه في وجه أعدائها سيأتي، وأنك ستكون قادرًا على إعادة العدالة لها وللغجر."

سكتت للحظات، ثمّ أضافت: "القرية ليست فقط أعداء يا سلطان. بعضهم ضحايا للخوف والجهل. النبوءة التي كانت تتحدث عنك جعلت منهم

أدوات في يد ظالم يستغلهم لأهدافه. إذا أردت الانتقام، عليك أن تعرف من هو العدو الحقيقي."

تردد سلطان قليلًا قبل أن يجيب: "من هو العدو الحقيقي؟ سأل، وكأنه يبحث عن إجابة لكل شكوكه.

اقتربت حيلاء من وجهه، وحدقت في عينيه بثبات: "العدو الحقيقي هو الظلم والخوف، يا سلطان. رجال القرية كانوا مثل الأفعى المذعورة، التي تلدغ كل من يهددها لكن هناك من قادهم، من زرع في قلوبهم الخوف واستغل جهلهم."

نهض سلطان بغضب مفاجئ، ورمى حجرًا صغيرًا في النار جعل الشرر يتطاير، وقال بصوت غاضب: "لا أريد أن أفهمهم بعد الآن! لا أريد أن أرى عذرًا لأفعالهم! أريد أن أرى الخوف في عيونهم، كما كان الخوف في عيون أمي وهي تواجههم وحدها."

ابتسمت حيلاء بحزن وقالت: "هذا ما أرادته غزل بالضبط، أن تحارب للعدالة، لا للانتقام. أن تحارب من أجل الحقيقة، لا من أجل الكراهية. أنت لست مجرد طفل يا سلطان، أنت الأمل الذي حلمت به غزل."

هدأت نبرة سلطان قليلًا، وهو ينظر إلى حيلاء بعينيه الممتلئتين بالعزم، "سأقاتل لأجلها، خالتي. لكنني سأجعلهم يتذكرون كل لحظة قهروا فيها والدتي، وكل دمعة أسقطتها، وسأجعلهم يدفعون الثمن."

أمسكت حيلاء بيديه وضغطت عليهما برفق، وقالت بصوت يحمل في طياته القوة والتحدي: "إذًا، لنبدأ الآن يا سلطان. ستتعلم كيف تصبح سيفًا مسلولًا، كيف تكون الذراع التي كانت غزل تتمنى أن تكون في حياتها. سنقلب الطاولة على الجميع، لكن بفكر وقوة، وليس بغضب عشوائي."

نظر سلطان إلى حيلاء، وشعر بأنّ بين يديه سلاحًا جديدًا، ليس مجرد سلاح للانتقام، بل سلاح لتحقيق العدالة لأمه، ليعيد لروحها السلام الذي انتزع منها.

نظراته مليئة بالإصرار تتلألأ أمام لهيب النار المتراقص، ونظرات حيلاء التي تحمل في داخلها وعدًا بالثأر المحقق، وكأنهما توحدا في عهد غير مرئي لتغيير مصيرهما معًا.

نهضت حيلاء وأشارت له بيدها ليتبعها خارج الخيمة. وقف سلطان مترددًا لكنّه تبعها إلى الخارج، حيث كانت الأرض مغطاة بالحصى والرمال. أمسكت حيلاء بعصا خشبية وسلمتها إلى سلطان، "لنبدأ التدريب اليوم.

قد تبدو هذه العصا مجرد خشبة، لكنّها ستكون سلاحك إذا تعلمت كيف تستعملها."

أخذ سلطان العصا بين يديه، يشعر بثقلها ويبحث في وجه حيلاء عن الدعم. فقالت له بابتسامة خفيفة: "القوة ليست في السلاح يا سلطان، بل في القلب والعقل. عندما تعرف كيف تستخدم قلبك وعقلك، لن يقف أحد أمامك."

بدأ سلطان يتدرب بتوجيهات حيلاء، لكنّه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في والدته غزل، يعلم أن تدريبه هذا ليس مجرد قتال، بل هو طريقه الوحيد للانتقام والعدالة.

ارتفع صوت سلطان وهو يقول بعزم: "سأتعلم، خالتي. سأصبح أقوى من أي وقت مضى. سأحميكِ وأحمي ذكرى أمي مهما كان الثمن."
نظرت حيلاء إليه بعيون مليئة بالفخر والحزن معًا، "أعلم أنك ستفعل، يا سلطان. ستفعل لأجلنا جميعًا، ولأجل غزل."
ومرت الليالي وبدأت بذور الانتقام تتجذر في قلب سلطان، لتستعد لمواجهة قدره المحتوم والعدالة التي تنتظره.

****

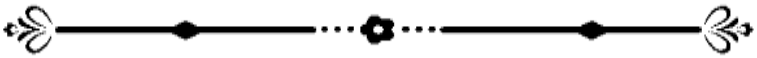

كشف الخيانة داخل كفر الغجر

كان الليل قد أسدل ستاره، لكن السكون لم يكن حليفًا لهذه الليلة. في كل خيمة، كانت الهمسات تهمس في الأجواء، والتوتر كان يسري كالنار في الهشيم. الجميع كان يعلم أنّ شيئًا ما على وشك الحدوث، ولكن لم يكن أحد يعرف كيف ومتى. وسط هذه الأجواء، كانت هناك عينان تراقبان في الظلام، تترقبان اللحظة المناسبة للتحرك.

في إحدى زوايا كفر الغجر، كان هناك رجل يدعى "مراد"، يعيش على أطراف الكفر. لم يكن الغجر يثقون به كثيرًا، ولكنه كان جزءًا منهم على أي حال. كان مراد رجلًا قليل الكلام، دائمًا ما يُرى وحيدًا، وقد ظل لأيام يراقب كل حركة في الكفر بعينين مليئتين بالحذر والخداع. كان يعلم أن وقته قد حان.

مراد كان يعمل في الخفاء لصالح رجال القرية. كان عينًا لهم داخل كفر الغجر، ينقل المعلومات السرية ويحاول زرع الفوضى بين صفوف الغجر. لم يكن ولاؤه للغجر، بل كان يبحث عن مصلحته الشخصية فقط، وكان يعرف أنّ المكافأة ستكون كبيرة إذا تمكن من تقديم ما يكفي من المعلومات عن خطة حيلاء واستعدادات الغجر.

في تلك الليلة، قرر مراد أن يتحرك. كان يعلم أن المعلومات التي يحملها ستكون ثمينة لرجال القرية. كان يعرف أن حيلاء تخطط لشيء كبير، وأنه إذا تمكن من نقل تلك المعلومات إلى العمدة، فقد يضمن لنفسه حماية وربما ثروة.

تسلل مراد بين الخيام بخفة، مستغلًا الظلام ليخفي خطواته. كان يسير بخطوات حذرة، ولكن قلبه كان ينبض بسرعة. وصل إلى أطراف الكفر، حيث كان ينتظره رسول من رجال القرية. في مكان منعزل بعيد عن الأنظار، التقى به.

"هل لديك ما يفيد؟" سأل الرسول بصوت خافت وهو يراقب المكان حوله.

ابتسم مراد بخبث وأجاب: "لدي كل ما تحتاجون إليه. لقد اجتمع كبار الغجر وقرروا أن يتوقفوا عن المراقبة وظنوا أنكم قد نسيتم أمر الصبي، وخرج كل منهم لعمله يبحث عن قوته، والكفر أصبح هادئًا ولا قلق من الهجوم عليهم لأخذ الصبي.

رفع الرسول حاجبيه، وقد بدا عليه الاهتمام. "هذا مهم جدًا، ولكن كيف نعرف أنّ ما تقوله صحيح؟"

أجاب مراد بثقة: "لقد سمعتهم بنفسي. يتململون من وقف حالهم، وكل ما عليك فعله هو أن تخبر العمدة بأن الفرصة قد حانت. لكم لمباغتتهم في عقر دارهم."

كان الرسول يتفحص مراد بنظرة شك "وماذا تريد مقابل هذه المعلومات؟"
أجاب مراد بسرعة: "حمايتي. لا أريد أن أكون طرفًا عندما يشتعل الصراع. أريد ضمانة بأنني سأكون آمنًا وأن أحصل على حصتي من أي شيء تأخذونه."
ابتسم الرسول ابتسامة خفيفة وقال: "ستحصل على ما تستحق. لكن تأكد من أنك لا تفوت أي تفاصيل. إذا خدعتنا، ستكون نهايتك قريبة."
هز مراد رأسه موافقًا وقال: "لا تقلق. أنا فقط أريد النجاة."
انتهى اللقاء بسرعة، وعاد مراد إلى كفر الغجر وهو يشعر بأنه قد أمسك بزمام الأمور. لكنّه لم يكن يعلم أن هناك من كان يراقبه طوال الوقت.
في خيمة بعيدة عن الأنظار، كانت حيلاء تجلس مع الزعيم وبعض كبار الغجر. كانت تعلم أنّ هناك خائنًا بين صفوفهم. حدسها كان قويًا، وكانت تشعر أنّ هناك من يبيع أسرارهم لرجال القرية. نظرت إلى الزعيم وقالت بهدوء: "الخائن بيننا، وأنا أعرف من هو."
تفاجأ الزعيم وقال: "من يجرؤ! فلنذبحه على الملأ ليكون عبرة لغيره"
ابتسمت حيلاء بابتسامة خافتة وقالت: "ليس بعد. سنجعله يخدم خطتنا. سنتركه يظن أنه يسيطر على الأمور، وسنزرع فيه المعلومات التي نريدها أن تصل إلى رجال القرية. سيكون أداتنا لتنفيذ ما نخطط له."
كانت كلمات حيلاء مليئة بالحزم والذكاء. كانت تعلم أن الحرب ليست فقط بالسلاح، بل بالعقل والمكر.

كان الفجر يقترب، والسماء بدأت تتلون بلون الشفق الباهت، استمرت الاستعدادات في هدوء مُريب. كان الجميع يعلم أن المواجهة مع رجال القرية باتت وشيكة، لكن حيلاء كانت هي الوحيدة التي تعرف التفاصيل الحقيقية لما سيحدث. كانت تعلم أن الفخاخ قد نصبت بعناية، وأن كل خطوة محسوبة بدقة. لكن الخائن، مراد، كان يلعب دوره بشكل مثالي في خطتها.

داخل الخيمة الكبيرة، اجتمع كبار الغجر حول حيلاء مرة أخرى. وجوههم كانت تحمل علامات التعب والقلق، لكن حيلاء كانت ثابتة، عيناها تتوهجان بالعزم والحكمة. قالت بصوت هادئ لكنه مشحون بالقوة: "نعلم أنّ الخائن، مراد، قد نقل المعلومات إلى رجال القرية. لكنه لا يعرف أن كل ما نقله كان مجرد جزء من خطتي."

أحد الرجال قال مترددًا: "ولكن يا حيلاء، ماذا لو اكتشف رجال القرية أن المعلومات التي نقلها لهم ليست كاملة؟ ماذا لو أدركوا أنهم في فخ؟"
ابتسمت حيلاء ابتسامة باردة، وقالت بثقة: "لن يكتشفوا ذلك حتى يكون الأوان قد فات. لقد جعلناه يظن أنه يملك كل شيء، لكنه مجرد بيدق في لعبتنا. لقد نقل لهم ما أردناه أن ينقله، وسنستخدمه في اللحظة المناسبة لنجعلهم يتقدمون إلى حيث نريد."

قال أحدهم بصوت مليء بالشك: "ولكن مراد... أليس من الخطير أن نتركه؟ ماذا لو كان يعي ما نخطط له ويخدعنا؟

نظرت حيلاء إليه نظرة واثقة، وقالت بلهجة قاطعة: "مراد ليس سوى أداة. إذا شعرنا بأي خطر من جانبه، سنتخلص منه. لكن في الوقت الحالي، نحتاج إليه ليقود رجال القرية نحو فخنا. وسيفعل ذلك دون أن يدرك أنه يخدم مصلحتنا."

سكت الجميع للحظة، وكان بإمكانهم رؤية القوة في عيني حيلاء، وكيف أنها سيطرت على الموقف بشكل كامل. لم تكن تتحرك بدافع الانتقام وحده، بل كانت تفكر في كل خطوة بحذر، تخطط للأحداث كأنها قطع شطرنج.

بعد لحظات، نهضت حيلاء واقتربت من المدخل، حيث كانت الرياح الخفيفة تعبث بالشعلة الصغيرة التي تضيء الخيمة. وقفت هناك للحظة، وكأنها تتحدث إلى نفسها بصوت مسموع: "المعركة التي نواجهها ليست فقط مع رجال القرية. نحن نحارب من أجل كرامتنا، من أجل غزل، من أجل حقنا في العيش بسلام دون خوف. إذا فشلنا الآن، سنفقد كل شيء. لكننا لن نفشل."

ثم استدارت إلى الزعماء مرة أخرى، وقالت بحزم: "سيرسل رجال القرية مجموعة استطلاع أولًا. سيظنون أنهم يملكون الأفضلية، لكننا سنكون مستعدين. الفخاخ في الغابة ستلتقط أولئك الذين يظنون أنهم الأقوى. وعندما يتحرك جيشهم الرئيسي، سنغلق عليهم الطريق ونتركهم بين الفخاخ والنار، ستكون معركتنا في الغابة خارج الكفر."

كان الرجال يستمعون بصمت، ولكن بدا عليهم أنهم بدؤوا يفهمون الخطة بشكل أوضح. كل خطوة كانت محسوبة بدقة، وكل تفصيلة كانت في مكانها. ورغم الشكوك التي راودتهم في البداية، فإنهم كانوا يثقون الآن في حكمة حيلاء ورؤيتها.

اقترب منها الأسد، وقال بصوت مليء بالفخر: "حيلاء، يا لك من ماكرة وذكية نثق بك وبخطتك. سنكون جاهزين."

أومأت حيلاء برأسها، وعيناها تلمعان بالتصميم. "سيظن رجال القرية أن لديهم اليد العليا، ولكنهم لا يعرفون أن كل خطوة يخطونها تقربهم من هلاكهم، حتى يفاجؤون بأنهم وقعوا في الفخ ومراد... هو المفتاح لكل هذا."

في تلك اللحظة، كان مراد في مكان آخر تمامًا، بعيدًا عن خيام الغجر، يراقب الأفق بقلق. لم يكن يدرك أنه أصبح جزءًا من لعبة أكبر مما كان

يتصور. كان يظن أنه يسيطر على الأمور، وأنه سيخرج سالمًا من هذه الفوضى، لكنه لم يكن يدرك أن حيلاء كانت تسبقه بخطوتين.

....

كان الليل قد أسدل ستاره على كفر الغجر، وبدأ القمر في إضاءة السماء الصافية. لكن تحت هذا الهدوء الظاهري، كانت هناك عاصفة مشتعلة داخل سلطان. كان يعرف الآن أنّ هناك خائنًا بين الغجر، وأنّ ذلك الشخص يعمل لصالح رجال القرية. تسربت الأفكار إلى عقله كالشظايا، مشاعر الخوف والغضب تختلط في داخله. لم يكن الصبي الذي كان يختبئ من الظلام بعد الآن، بل أصبح شابًا يسعى إلى كشف الحقيقة، حتى لو كان ذلك يتطلب مواجهة الخائن نفسه.

تحرك بخفة بين الخيام، وكانت عيناه تتطلعان حوله بتوتر. كان يعرف أن اللحظة قد حانت. عليه مواجهة الحقيقة، مهما كانت مُرة. وصل أخيرًا إلى مكان خيمة مراد، الرجل الذي بدأت الشكوك تدور حوله. كان مراد يجلس وحده عند النار، يراقب اللهب الهادئ، دون أن يدرك أن النهاية تقترب منه. اقترب سلطان بهدوء، عيناه مركزتان على مراد. تردد للحظة، لكنه أدرك أن هذا هو وقته، "مراد!" قال بصوت منخفض لكنه حاد.

استدار مراد ببطء، وحدق في سلطان بنظرات مليئة بالحيرة والريبة. "ماذا تريد، أيها الصبي؟" سأل بنبرة محايدة، يحاول إخفاء توتره.

اقترب سلطان أكثر، وعيناه تتوهجان بالغضب المكبوت. "أريد أن أعرف الحقيقة. أريد أن أعرف من أنت حقًا، وما الذي تفعله هنا؟"

ضحك مراد بضحكة جافة، ورفع حاجبيه بسخرية. "الحقيقة؟ أنت مجرد صبي، لن تفهم الحقيقة حتى لو وقفت أمامك. عد إلى خيمتك ودع الرجال يتعاملون مع الأمور الكبيرة."

لكن سلطان لم يتحرك، بل اقترب أكثر، حتى أصبح قريبًا جدًا من مراد، وقال بصوت خافت لكنه مليء بالعزم: "أعلم أنك خائن. أعلم أنك تنقل المعلومات لرجال القرية. كنت تظن أنك ذكي، لكنك لست سوى بيدق في لعبة أكبر مما تتصور."

توقف مراد عن الضحك، وحدقت عيناه في سلطان ببرود. "وما الذي ستفعله، أيها الصبي؟"

لم يرد سلطان، بل وضع يده على خنجره الصغير الذي كان يحمله دائمًا. كان مستعدًا لفعل ما يلزم لكشف الحقيقة. "سأفعل ما يجب فعله لحماية كفر الغجر. ستخبرني الآن بكل شيء، أو سأجعل النار التي تجلس بجوارها آخر ما تراه."

أدرك مراد أنه في موقف لا يحسد عليه. كان يعلم أن الصبي قد أصبح أكثر شجاعة مما توقع، وأنّ الحبل يضيق حول رقبته. لم يكن هناك مفر الآن.

تنهد بعمق، ونظر حوله وكأنه يحاول إيجاد مخرج، لكن لا أحد كان هناك ليسمعه.

"حسنًا، أيها الصبي، سأخبرك. نعم، كنت أنقل المعلومات إلى رجال القرية. ولكن لا تظن أنني كنت أفعل ذلك فقط من أجل المال. كان لدي دوافعي الخاصة. كنت أحمي نفسي، وأبحث عن مخرج من هذا الكفر. لم أعد أريد العيش بين الغجر، فحياتهم ليست لي."

سلطان كان يسمع كلماته، لكن قلبه لم يعد يلين. "ولماذا تظن أن خيانتك ستبقى مخفية؟ حيلاء تعرف كل شيء. أنت مجرد بيدق، مراد، ولن تدوم خيانتك طويلًا."

تسارعت أنفاس مراد، وعيناه مليئتان بالارتباك. "ماذا تعرف حيلاء؟ هل تعرف كل شيء؟"

أومأ سلطان برأسه ببطء. "نعم، هي تعرف كل شيء، وهي استخدمتك لتنقل لرجال القرية ما أرادتهم أن يعرفوه. لقد كنتَ جزءًا من خطتها، والآن انتهى دورك."

شعر مراد أن نهاية خيانته قد اقتربت، وأنه لن يستطيع الإفلات هذه المرة. ولكن قبل أن يتمكن من التفكير في حل، كان سلطان قد انتزع الخنجر من حزامه ووضعه أمامه.

"أمامك خياران يا مراد. إما أن تعترف بكل شيء أمام زعماء الغجر، أو ستنتهي حياتك هنا، بجانب هذه النار التي خدعت نفسك بأنك تسيطر عليها."

صمتت الغابة من حولهما، ولم يكن يسمع سوى صوت النار المتراقصة أمامهما. تردد مراد للحظات، لكنه عرف أن الهروب لم يعد خيارًا.
أخيرًا، رفع يديه مستسلمًا وقال بصوت متهدج: "سأفعل ما تطلبه... سأعترف.
وبذلك انتهت المواجهة، وسلطان عرف أن أول خطوة في طريق العدالة قد بدأت، لكن الطريق لا يزال طويلًا ومعقدًا.

....

بدأت أشعة الشمس الأولى تتسلل عبر أشجار الغابة. في كفر الغجر، كانت الاستعدادات قد وصلت إلى ذروتها. الفخاخ نُصبت، والرجال ينتظرون في أماكنهم، مستعدين للمواجهة الحتمية مع رجال القرية. سلطان كان يقف بعيدًا عن الأنظار، محاطًا بمجموعة من رجال الغجر، مرتديًا لثامًا أسود يخفي ملامحه بالكامل. لم يكن يرغب في أن يتم التعرف عليه بسهولة. اليوم، لم يكن سلطان ابن القرية المفقود، بل كان محاربًا يقاتل من أجل أمه غزل ومن أجل حقه.

وقفت حيلاء على رأس المجموعة، تراقب الأفق بعينين يملؤهما الحزم. "سيأتون قريبًا"، همست وهي تنظر إلى السماء. "يظنون أن بإمكانهم استعادة سلطان دون مواجهة، لكنهم سيقعون في الفخ الذي أعددناه لهم."

وفجأة، من بعيد، بدأ صوت حوافر الخيول يتردد في الغابة، يتزايد مع مرور الوقت. رجال القرية بزعامة العمدة الذي ظنّ أنّ المعركة ستكون يسيرة لذلك استيسر ولم يأتِ بالكثير من الرجال، حتى أنه لم يخبر ابنه فارس بأمر الهجوم وتركه بين أولاده، ولكنّهم لم يتوقعوا كمائن الغجر. تقدم العمدة على رأسهم، وجهه متجهم ومليء بالتصميم. لم يأتِ ليشن حربًا، فكان يعلم يقينًا أن الغجر تفرقوا إلى أعمالهم. قال بصوت خافت لرجل بجانبه: "حتى إذا قاوموا، ستكون لنا الغلبة بفعل المفاجأة. وسوف نعيد سلطان بأي ثمن."

في اللحظة التي قطعوا فيها نصف الطريق عبر الغابة، انفجرت الفخاخ التي نصبتها حيلاء ورجالها. الصخور تتساقط من الأعلى، والأرض تفتح فجأة لتسقط في حفر مخفية. رجال القرية، الذين لم يتوقعوا هذه الهجمة المباغتة، وجدوا أنفسهم في فوضى عارمة.

"كمين!" صاح أحد الرجال وهو يحاول النجاة من الفخاخ المتساقطة.

العمدة حاول السيطرة على الموقف، لكن الفوضى كانت تزداد. رجال القرية كانوا في وضع لا يُحسدون عليه، محاصرين بين الفخاخ والكمائن. في تلك اللحظة، انطلقت صيحة حيلاء، وخرج رجال الغجر من بين الأشجار،

ملثمين بالكامل. كانوا يعرفون أن رجال القرية سيبحثون عن سلطان، ولهذا السبب أمرتهم حيلاء بتغطية وجوههم حتى لا يتمكن العدو من تمييز أحدهم.

بدا رجال القرية في ارتباك واضح. لم يستطيعوا التمييز بين الغجر وبين سلطان، الذي كان بينهم لكن دون أن يظهر ملامحه. "أين سلطان؟" صاح أحد رجال القرية وهو يحاول القتال، لكن الغموض كان مسيطرًا، ولم يكن أحد يعلم أن سلطان يقاتل بالفعل بينهم.

انطلقت المواجهة، ورجال الغجر استخدموا معرفتهم بتضاريس الغابة لصالحهم. كانوا يضربون بسرعة ويختفون بين الأشجار، بينما رجال القرية يواجهون صعوبة في التنظيم والرد. لم يكن الهدف الرئيسي هو سفك الدماء، بل إحكام قبضتهم على رجال القرية وفرض السيطرة على المعركة.

سلطان، الذي كان ملثمًا بين رجال الغجر، كان يراقب المشهد بعينين مملوءتين بالغضب. لم يكن يقاتل مباشرة، لكن قلبه كان ينبض بعنف مع كل ضربة وكل صرخة. كان يعلم أنّ هذه المعركة هي جزء من انتقامه، لكنه أدرك أيضًا أن رجال القرية جاؤوا ليعيدوه، ولا يعرفون أنه يقاتل بينهم.

العمدة، الذي كان يحاول جمع شتات رجاله، نظر حوله في حالة من الذهول. كان يعلم أن كل شيء ينهار أمامه. "انسحبوا!" صاح بأعلى صوته، وأمر رجاله بالعودة إلى الوراء، بعيدًا عن الفخاخ والغجر. لم يكن أمامه خيار آخر

سوى التراجع، والعودة إلى القرية دون سلطان، لأنّ المعركة لم تكن كما تصورها.

مع تلاشي صوت المعركة شيئًا فشيئًا، وبدأ رجال القرية في الانسحاب، وقف العمدة في منتصف الفوضى، يحاول جمع ما تبقى من كرامته. الأرض حوله كانت مليئة بالرجال المنسحبين، وكانت الغابة تئن من وطأة الفخاخ التي نصبتها حيلاء ورجالها. لكن هناك شيء آخر كان ينتظره، شيء لم يكن مستعدًا لمواجهته.

من بين الظلال، ظهرت حيلاء، خطواتها ثابتة ووجهها مشحون بالغضب المكبوت الذي حملته لسنوات طويلة. كانت تمسك بسيف صغير في يدها، لكنه لم يكن مجرد سلاح، بل كان تجسيدًا لكل الألم الذي مرّت به هي وغزل. عيناها كانتا مثل النار، تحرقان كل ما تلمسانه بنظراتهما. تقدمت نحوه، بينما كان العمدة يقف متجمدًا في مكانه، غير قادر على الهروب.

"لقد أتى اليوم الذي ستدفع فيه الثمن،" قالت حيلاء بصوت خافت، لكنّه كان محملًا بالقوة. "لقد قتلتَ غزل... والآن جاء دورك."

العمدة حاول الحفاظ على تماسكه، لكنّه شعر بيديه ترتجفان. كان يعلم أنّ لا مفرّ له، وأنّ الحقيقة التي طالما حاول دفنها ستطفو على السطح. رفع يديه بتسليم، وحاول التحدث بصوت هادئ، "أنتِ لا تفهمين القصة كاملة."

تقدمت حيلاء خطوة أخرى، والهواء كان ثقيلًا بينهما. "القصة كاملة؟ أنت قتلت أختي. هذا كل ما أحتاج إلى فهمه."

تلعثم العمدة مترددًا ولكن حيلاء لم تمنحه فرصة للتملص، أشارت إلى رجالها، الذين أحضروا أمامه فتى صغيرًا. كان الفتى يرتجف، لكن ملامحه كانت مألوفة جدًا. أدرك العمدة سريعًا أنه ليس سلطان، لكنه ابن أحد رجال الغجر. ومع ذلك، بدا الأمر كأنه تهديد حقيقي.

قالت حيلاء بصوت بارد:

"هذا الفتى سيدفع الثمن إذا لم تقل الحقيقة الآن. كل الأكاذيب التي نسجتها ستنتهي هنا."

تردد العمدة للحظة، ثم أدرك أنه لم يعد بإمكانه الهرب من المواجهة، فقد حركه الرابط بينه وبين سلطان وقرر الحديث خشية عليه

"غزل كانت تهددني،" قال بصوت مضطرب. "لقد خدعت الجميع. كل الرجال الذين ظنوا أنهم لمسوا جسدها... كانوا ضحية لأعشاب منومة. لم يقترب منها أحد، لكنّها كانت تُخدرهم، تتركهم يفيقون ليجدوا أنفسهم بجوارها، موشومين بعلامة العشق. كانوا يظنون أنهم فعلوا بها وهم لم يفعلوا."

اتسعت عينا حيلاء، لكنها لم تنطق بكلمة. كانت الكلمات تتدفق من فم العمدة كالسيل، وهو يحاول أن يبرر كل شيء. "لكنني... كنت الوحيد الذي

لم يخدع. أنا والد سلطان. لقد أخبرتني غزل أنها حامل بابني، وهددتني بأن سلطان سيكون قدري المحتوم إذا لم أعترف به."

أخذت حيلاء نفسًا عميقًا، وشعرت بأنّ الأرض تهتز تحت قدميها. " تركتها تواجه مصيرها وحدها؟"

أومأ العمدة برأسه، عيناه مملوءتان بالخوف والندم. "نعم... لقد كنت خائفًا. غزل كانت قوية جدًا، كانت تعرف كيف تجعلني أضعف أمامها. حاولت أن أسيطر على الموقف، لكن عندما هددتني بأن سلطان سيكون من يدمرني، لم أستطع التفكير بوضوح."

تقدمت حيلاء خطوة أخرى، والغضب يشتعل في عينيها. "فما الذي فعلته؟ كيف تجرأت على قتلها؟"

تنفس العمدة بعمق وقال: "لم يكن قتلها جزءًا من الخطة. أنا وبرهان اتفقنا على أن نستخدم النبوءة لإبعاد غزل وسلطان عن القرية. أردنا أن نجعلها تهرب بلا رجعة. أقنعتها بأن الغجرية التي تفسد البيوت يجب أن تُطرد. لقد أقنعتها بأننا لن نقتل الطفل، بل نخدعها فقط لتأخذ ابنها وتهرب بعيدًا."

كانت كلمات العمدة كالسكاكين تخترق قلب حيلاء، لكنها لم تتحرك: "لكنها لم تهرب كما خططتم"

هز العمدة رأسه بمرارة: "لا، لقد خلطت بين الأطفال. لم أستطع التخلص من سلطان. كل شيء انهار عندما أدركنا أننا فقدنا السيطرة على الموقف. وبرهان... هي من أجبرت أهل القرية على قتلها. لقد كانت خائفة من أن ينكشف كل شيء."

ارتفعت أنفاس حيلاء، وعيناها تلمعان بالغضب. "برهان؟! إذًا كانت جزءًا من هذه الخيانة أيضًا؟"

أومأ العمدة برأسه ببطء، وواصل بصوت خافت: "نعم، برهان أرادت أن تخلص نساء القرية من تهديد غزل لهن ولبيوتهن، ولذلك وافقت على قتل غزل. لكنها عاقبتني فيما بعد بتزويج ابني من نادية."
في تلك اللحظة، شعرت حيلاء بأن كل شيء أصبح واضحًا أمامها. "إذًا كانت الخدعة بأكملها... مجرد وسيلة لتدمير حياتها، وإجبارها على الهرب. لكنكم لم تتوقعوا أن ابنها سيبقى هنا، في قلب القرية."

"لم نكن نخطط لقتلها،" قال العمدة بتوسل. "كانت الخطة فقط أن نخدعها، لكنها لم تنجح. غزل كانت دائمًا أقوى منا، وحتى في موتها كانت قوية شجاعة."

ابتعدت حيلاء ببطء، وعيناها تراقبان العمدة وهو يرتجف. "والآن، سلطان يعرف الحقيقة. إنه ابنك، وسيكون النهاية التي لم تستطع الهرب منها"

وبينما كانت تفكر، ظهر سلطان من خلف الأشجار، وجهه ما يزال مخفيًا خلف اللثام الذي ارتداه طيلة المعركة. عيناه كانتا تشعان بالغضب والارتباك، وكأنهما تطلبان إجابة عن كل ما حدث للتوّ. اقترب ببطء، وكأنه يقيس كل خطوة يخطوها. وأخيرًا، وقف أمامهم...

"لقد سمعت كل شيء،" قال بصوت متهدج، كان يحاول كتم الغضب الذي كان يتصاعد في داخله.

حيلاء نظرت إليه بعينيها المملوءتين بالعطف والقوة: "نعم، سلطان. لقد سمعت الحقيقة التي حاولوا إخفاءها عنك طيلة هذه السنوات."

صمت سلطان للحظة، وكأنه يحاول استيعاب كل شيء. أن والده الحقيقي هو الرجل الذي سعى لقتله، وأن والدته قتلت بسبب كذبة كبرى، وأن النبوءة التي كان يُحاصر بها لم تكن سوى لعبة.

"إذًا... أنت والدي؟" سأل أخيرًا بصوت مليء بالمرارة.

أومأت العمدة برأسه ببطء. "نعم، يا ولدي"

أخذ سلطان نفسًا عميقًا، وعيناه تلمعان بالغضب والحيرة. "لقد قتلتها، قتلت أمي!"

قالت حيلاء وهي تقترب منه: "لكن الآن أنت تعرف كل شيء. والقرار لك. أنت ابن غزل، وابن العمدة أيضًا. لكن مصيرك لن يتحدد بناءً على أفعالهم. مصيرك الآن بين يديك."

توقف سلطان ونظر إلى الأرض، كان يشعر بثقل الحقيقة على كتفيه. كل ما عاشه منذ طفولته لم يكن إلا كذبة كبيرة. رجال القرية الذين ظنوا أنهم انتصروا في معركة القيم لم يدركوا أن الحقيقة كانت معقدة أكثر مما تخيلوا. لكن مع ذلك، كان عليه اتخاذ القرار.

رفع رأسه أخيرًا، وكان في عينيه مزيج من الغضب والقرار. "لن أدع ما فعلته يمر بدون عقاب. سأعيد حق أمي، وسأجعل كل من تسبب في موتها يدفع الثمن."

ابتسمت حيلاء ابتسامة خفيفة، فخورة بالشاب الذي وقف أمامها. "أعلم أنك ستفعل يا سلطان. لأنك ابن غزل، وابن الحقيقة التي لا يمكن طمسها."

اقترب سلطان بخطوات بطيئة من العمدة، ثم قال بصوت هادئ لكنه مليء بالثبات: "أنت لم تكن أبدًا أبي. كنت الرجل الذي قتل أمي خوفًا من قدره.

والآن، عليك أن تواجه هذا القدر، ستخبر الجميع بالحقيقة، ببراءة أمي من تهمكم، ومن نبوءاتكم الكاذبة."

أومأ العمدة برأسه مذعنًا مبديًا ندمه، فنظر سلطان إليه بعينين مليئتين بالازدراء. لم يكن هناك شيء يمكن للعمدة قوله ليغير ما شعر به سلطان. لم يكن الأب الذي يستحق الاحترام، بل الرجل الذي دمر حياة والدته ودمر حياته.

رفع العمدة يده بتوسل، لكن سلطان استدار عنه ببرود وتحركوا جميعًا نحو القرية.

شعر سلطان بشيء من الراحة، لكنه لم يكن كاملًا. كان يعلم أن معركة أخرى تنتظره، معركة لإعادة بناء ما دُمر.

نظرت حيلاء إلى سلطان، ثمّ وضعت يدها على كتفه وقالت بهدوء: "الطريق أمامك طويل يا سلطان، لكنه طريقك الآن. لا أحد يستطيع أن يسلبك حريتك أو مستقبلك بعد الآن."

أومأ سلطان برأسه، ثمّ نظر إلى الأفق حيث بدأت الشمس تغرب. "سأبدأ من هنا. سأعيد بناء حياتي وحياة الغجر. سأحقق العدالة لأمي، ولن أدع الماضي يحكم مستقبلي."

....

عندما عاد العمدة إلى القرية، بدا أن الزمن قد توقف. العيون تراقب بصمت، والقلوب مليئة بالتساؤلات حول مصير الرجل الذي قادت قراراته القرية نحو هذا المصير المظلم. كانت الحقيقة قد تكشفت بالكامل، ومعها جاء الوقت لمواجهة كل من تورط في هذه المؤامرة.

حيلاء وقفت بجانب سلطان، عيناها تحملان نظرة التحدي والمواجهة. لكنها كانت تعلم أنّ المعركة لم تنتهِ بعد. هناك برهان، المرأة التي حملت النبوءة على لسانها، ودفعت أهل القرية إلى اتخاذ القرار الذي أدى إلى مقتل غزل. لم يكن بإمكانها التهرب من مسؤوليتها بعد الآن.

"برهان..." همست حيلاء، وهي تتذكر كيف كانت هذه المرأة موضع احترام القرية، وكيف أن الجميع استمعوا إليها دون تردد. لكنها الآن، بعد أن تكشفت الحقيقة، أصبحت برهان في نظر الجميع شريكة في الجريمة.

"لن تفلت من العقاب،" قال سلطان وهو ينظر إلى حيلاء، وعيناه مليئتان بالعزم: "لقد كانت تعرف كل شيء، وكانت هي من دفع القرية لقتل أمي."

أومأت حيلاء برأسها، عيناها تحملان الحزن والحزم: "نعم، يا سلطان. برهان كانت جزءًا من المؤامرة. حان وقت مواجهتها."

في القرية، كانت برهان جالسة وحدها في كوخها، تشعر بثقل الزمن عليها. رغم أنها كانت قد خططت لكل شيء، إلا أن الأمور لم تسر كما أرادت. لقد

استخدمت النبوءة كوسيلة لحماية القرية كما أوهمها العمدة، لكنّها لم تتوقع أن الأمور ستخرج عن سيطرتها. الخوف كان يتسرب إلى قلبها، وهي تتخيل المصير الذي ينتظرها الآن بعد أن انكشف كل شيء.

سمعت خطوات تقترب من الكوخ، ورغم أنّها كانت تتوقع هذه اللحظة، إلا أن قلبها ارتجف. دخل سلطان وحيلاء، وكان وجه سلطان مشحونًا بالغضب، بينما كانت حيلاء تحمل نظرة باردة.

"حان وقت الحساب، برهان"، قالت حيلاء بنبرة حادة.

رفعت برهان رأسها ببطء، كانت عيناها مرهقتين وكأنها قد استنزفتها الحياة.

قالت بصوت ضعيف: "فعلت ما فعلته لحماية القرية من غزل وابنها الذي اختلط نسبه بين الرجال."

تقدمت حيلاء نحوها، عيناها تملؤهما السخرية: "لحماية القرية؟ أم لحماية نفسك؟ لقد استخدمتِ النبوءة كأداة لتأمين موقعك. كنتِ تعرفين أن أهل القرية لن يسألوا عن الحقيقة، فقط سيستمعون لما تقولينه دون تردد."

صمتت برهان للحظة، ثم نظرت إلى سلطان: "نعم، لقد كنت أعلم. كنت أعلم أن ما أفعله كان خطأ، لكنني لم أستطع التراجع. العمدة أقنعني بأن غزل وابنها سيكونان مصير القرية. ولم أكن أريد أن أفقد كل شيء."

ابتسم سلطان بسخرية، وملأ الغضب وجهه، "والآن؟ ماذا ستفعلين بعدما علمت أن ابن الغجرية لم يكن له سوى أب واحد وغير مختلط النسب، ماذا ستفعلين بعدما خسرتم كل شيء؟"

تنهدت برهان وقالت: "الآن... لا شيء. لقد أدركت أنني كنت على خطأ. لقد قتلت غزل دون أن أدرك أن ذلك سيفقدني كل شيء. لكن القرية... أهل القرية ليسوا مثلنا. إنهم خائفون، والآن بعدما انكشفت الحقيقة، ستثور الفوضى بينهم."

نظرت حيلاء نحو سلطان وقالت بجدية: "برهان لا تستحق الرحمة، لكنها لن تكون نهاية هذا الصراع. أهل القرية يجب أن يواجهوا الحقيقة بأنفسهم. لقد كانوا جزءًا من هذه المؤامرة، لكنهم اتبعوا الأكاذيب التي زرعتها برهان والعمدة."

أومأ سلطان، ثم نظر إلى برهان وقال بصوت هادئ لكن مفعم بالحزم: "لن نقتلكِ، ستبقين هنا، وتعيشين بين الناس الذين خدعتهم. سوف ترين الفوضى التي زرعتها تنمو حولك. هذا سيكون عقابك."

نظرت برهان إلى سلطان بعيون ملؤها الندم والخوف. لكنها لم تتحدث. كانت تعلم أن كلامه صحيح، وأنها ستعيش لتشهد العواقب المدمرة لأفعالها.

وقف سلطان في منتصف الساحة، وحوله أهل القرية الذين كانوا ينظرون إليه بتساؤلات وقلق. قال بصوت عالٍ وواضح: "أنا سلطان، ابن غزل. أمي قُتلت بناءً على أكاذيب وُضعت بينكم. اليوم، أنتم تعرفون الحقيقة كما اعترف بها العمدة وبرهان، ثم قال بثبات: "اليوم، انتهى عهد الكذب والخيانة. إذا كنتم تريدون الاستمرار في العيش في هذا المكان، عليكم أن تبنوا حياة جديدة، حياة مبنية على الحقيقة والعدل."

نظر الرجال إلى بعضهم البعض، وقد أدركوا أن الكذبة التي عاشوا في ظلها لسنوات قد تحطمت، وأنّ القرية التي عرفوها لن تكون كما كانت.

....

كان النهار على وشك الانتهاء، لكن الغيوم الثقيلة في السماء جعلت الجو أكثر كآبة. القرية بأكملها بدت وكأنها قد دخلت في حالة من الصدمة، بعد أن انكشفت الحقيقة المريرة عن العمدة وغزل، وسلطان الذي لم يكن أحد يعلم حقيقته. بين كل هذه الفوضى، كانت هناك عائلة واحدة تحمل عبئًا أثقل من غيرها عائلة العمدة.

داخل بيت العمدة، جلس فارس في صمت، يعالج أفكاره المتشابكة. لقد سمع كل شيء، سمع كيف أن سلطان لم يكن مجرد صبي غريب جاء من العدم، بل كان أخاه غير الشقيق. الرجل الذي نشأ على احترامه، والده، لم يكن الأب الحقيقي الذي ظنه. وقفت نادية بجانبه، وجهها شاحب

وبجوارها ولداها، نظرت إليه بعينين مليئتين بالقلق والحزن، وقالت بصوت منخفض: "فارس، ماذا سنفعل الآن؟ كيف سنتعامل مع كل هذا؟"

أدار فارس رأسه ببطء نحوها، وعيناه مليئتان بالحيرة. "لا أعرف، كيف لي أن أتعامل مع حقيقة أن سلطان، الذي ظننت أنه ابني، هو أخي؟ أن والدي... أن والدي خدعنا جميعًا."

تنفست نادية بعمق وربتت على كتفه.

صمت فارس للحظات، كان يفكر في كل ما حدث، كيف أن والدته زبيدة عاشت كل هذه السنين مع هذا السر المدفون. وقف ببطء، وجهه مليء بالغضب. "يجب أن أتحدث مع أمي. لا يمكنها أن تبقى صامتة الآن. يجب أن نعرف ما الذي كانت تعرفه."

في الجانب الآخر من البيت، كانت زبيدة تجلس بمفردها، عيناها تحملان نظرة شاردة، وكأنها لا تستطيع مواجهة ما حدث للتو. منذ أن اكتشفت أن العمدة هو والد سلطان، وأنه أخفى هذه الحقيقة عنها طوال هذا الوقت، شعرت وكأن الأرض قد انهارت تحت قدميها. حياتها مع هذا الرجل المخادع كانت مبنية على كذبة.

دخل فارس الغرفة بعنف، ونظراته كانت مليئة بالأسئلة والغضب المكبوت. "أمي، هل كنت تعلمين هذا السر؟"

رفعت زبيدة رأسها ببطء، وعيناها تحملان حزنًا عميقًا "لم أكن أعرف شيئًا يا ولدي، والدك أخفى الكثير عني. لقد كان دائمًا يخفي شيئًا، لكنني كنت أعتقد أنه يحاول حماية القرية... حماية عائلتنا، كنت أظنه مختلفًا عن باقي الرجال والآن اكتشفت أنه فاقهم بُغضًا"

ثم ضحكت بسخرية وقالت له: "كان يخبرني دائمًا أنه سيحمينا من أي شر، حتى اتضح أنه هو الشر نفسه"

اقترب فارس منها، وصوته يرتجف بالغضب: "يحمينا؟ من ماذا؟ من الحقيقة؟ أن سلطان هو أخي؟ أن غزل لم تكن مجرد امرأة غجرية؟"

تنهدت زبيدة، ودمعة سالت على خدها. "لقد عرفتها متأخرًا يا بني، فقد أتت إليّ وصيفة وأخبرتني، كانت على علم بكل شيء، وعندما اكتشفت الحقيقة، كان كل شيء قد انهار بالفعل. وعندما علمت، حاولت أن أفعل شيئًا، لكن العمدة كان دائمًا لديه طريقته في إسكاتي."

صمت فارس للحظة، ثم جلس بجانب والدته، وعيناه تحملان الحيرة واليأس. "لماذا؟ لماذا خفتِ منه؟ كان بإمكانك أن تكشفي الحقيقة."

نظرت زبيدة إليه بعينين مملوءتين بالندم. "خفت على حياتي، على حياتكم جميعًا. العمدة لم يكن الرجل الذي كنت أعتقد أنه هو. لقد عاش في خوف من سلطان ويخشى أنه القدر الذي سيقضي عليه كما هددته غزل. لذلك

حاول إخفاءه، إبعاده عن القرية، يعتقد بذلك أنه يحمي نفسه من الفضيحة، انظر الآن لعاقبة أفعاله"

تقدمت نادية، التي كانت تقف في الزاوية تستمع لكل شيء، وقالت بصوت حزين: "والآن؟ ماذا سنفعل؟ وما مصير ولدينا، وهل سيصبح سلطان معهم أخا أبيهم أم أنه أخوهما كما كانوا دائمًا؟

نظر فارس إلى نادية، ثمّ إلى زبيدة وقال بصوت مليء بالقرار: "لن نعيش في ظل هذه الأكاذيب بعد الآن. سنواجه الحقيقة، ونتحمل نتائجها. سلطان هو أخي، وابنانا سيكبران وهما يعرفان الحقيقة. لن نخفي شيئًا بعد اليوم."

في تلك اللحظة، دخل سلطان إلى الغرفة، وجهه متجهم وهو يعلم أن الحديث عن الحقيقة قد بدأ. كان يدرك أن حياته قد تغيرت إلى الأبد بعد ما عرف من هو والده الحقيقي.

وقف سلطان عند الباب، ونظر إلى فارس، ثم إلى زبيدة.

راحت عيناه تتوغلان في أركان البيت، وكأنما تبحثان عن شوق التي وصله خبر موتها، ثم اغرورقت بالدموع فأسرع في مسحها وكبح جناح حزنه.

ثم قال بصوت هادئ ولكنه مليء بالألم:

"أنا لا أطمح لمكانٍ بينكم، لكنني أريد العدالة لأمي. أنا لا أريد الانتقام منكم. فقط أريد أن تعيشوا مع الحقيقة التي كانت مخفية عنكم."

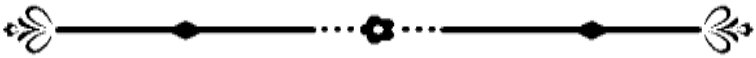

نهض فارس واقترب من سلطان، ووقف أمامه للحظات دون أن يتحدث، ثم بعد لحظة من الصمت، مد يده ببطء نحو سلطان وجذبه إلى حضنه وقال بصوت هادئ: "ابني أو أخي لن يغير الأمر من حبي لك شيئًا، والآن نحن نعرف الحقيقة، وسنعمل معًا لإصلاح ما تم تدميره."

وفي تلك اللحظة، أدركت زبيدة أنّ الحقيقة قد حررتهم جميعًا، لكنّها كانت تعلم أيضًا أنّ الألم الذي خلفته الأكاذيب لن يختفي بسرعة. فقط الوقت هو من سيكشف كيف ستتعامل هذه العائلة مع الجروح العميقة التي تركتها تلك الأكاذيب وراءها.

****

فارس ونادية – الحب الذي نما وسط الفوضى

في المساء، بعد كل المعارك والكشف عن الحقيقة المتعلقة بسلطان وغزل، كانت القرية قد دخلت في حالة من الهدوء المشوب بالحذر. جلس فارس بجوار نادية في الحديقة الصغيرة خلف المنزل، عيناها ممتلئتان بالتردد والقلق.

قالت بنبرة هادئة: "نحن لا نعرف ما الذي سيحدث غدًا. كل شيء تغير بسرعة."

ابتسم فارس بخفة، لكنّ عينيه كانتا تحملان عمقًا أكبر. "أعلم يا نادية، لكننا سنواجه كل شيء معًا. لم يعد هناك شيء نخفيه بعد الآن. الحقيقة واضحة، والآن علينا أن نبني حياة جديدة وسط هذا الخراب."

ترددت نادية لوهلة، ثم وضعت يدها على يده بحنان. "لطالما شعرتُ أننا لم نكن نعيش كعائلة حقيقية. كنتَ دائمًا تعاملني بمروءة، لكنني لم أشعر بحب الأزواج بيننا."

نظر فارس إليها بعمق وقال: "أعلم يا نادية. لكن الآن، بعد كل ما حدث، أرى العالم من منظور جديد. أريد أن نبدأ من جديد، أن نكون عائلة حقيقية."

ابتسمت نادية، وللمرة الأولى منذ فترة طويلة، شعرت بالأمان في حضوره. "وأنا أيضًا أريد ذلك يا فارس."

في تلك الليلة، بعد أن خفتت أصوات القرية وعمّ السكون أرجاء المنزل، وجدت نادية نفسها تفكر كثيرًا في فارس، كان الهواء يحمل برودة خفيفة، لكن قلبها كان مشحونًا بحرارة غير مألوفة. كان هناك شيء مختلف في تلك الليلة؛ شعور بالسلام بدأ يتسلل إلى قلبها، وكأنّ الحواجز التي كانت تفصل بينهما بدأت تنهار ببطء.

دخل فارس إلى الحجرة بخطوات هادئة، وعيناه تبحثان عن عينيها. كان الصمت يملأ المكان، لكنّه لم يكن صمتًا باردًا كما في السابق، بل كان صمتًا مليئًا بالكلمات التي لم تُقَل بعد. توقف عند عتبة الغرفة للحظة، وكأنه يأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يتخذ خطوة إلى الأمام، نحوها.

اقترب فارس ببطء، وعيناه لم تفارقا عينيّ نادية. كان يرى فيها شيئًا جديدًا، شيئًا لم يلاحظه من قبل، وكأنه يرى لأول مرة المرأة التي كانت تشاركه الحياة. لم تكن مجرد شريكة في زواج صوري، بل كانت امرأة حقيقية، مليئة بالدفء والمشاعر التي لم تُفصح عنها بعد.

عندما جلس بجانبها، لم يكن هناك حاجة للكلمات. كانت اللحظة مليئة بالتواصل الصامت، ذلك النوع من التواصل الذي لا يحتاج إلى شرح أو توضيح. مد يده ببطء، وأخذ يدها بين يديه. كانت لمسة يده دافئة وحنونة.

اقترب منها أكثر، حتى شعرت بأنفاسه تلامس وجهها. في تلك اللحظة، كانت هناك حواجز أخيرة بينهما، لكنها بدأت تتلاشى. لم يعد هناك مكان للتردد أو الخوف. شعر فارس بأنّ قلبه ينبض بقوة، وكأنّ كل لحظة قضاها في شكوكه وتردده تذوب الآن بين ذراعيها.

أخذها بين ذراعيه بحنان، واحتضنها كما لو كان يحتضن شيئًا ثمينًا فقده لفترة طويلة. شعرت نادية بأنفاسه تهدأ بجانبها، وكانت تلك اللحظة التي شعرت فيها أخيرًا بالأمان والحبّ الحقيقي. لم تكن بحاجة للتفكير في الماضي أو المستقبل، كانت تلك اللحظة، بكل ما فيها من دفء وصدق، كافية لملء الفراغ الذي كان بينهما.

تلاشت الشكوك والخوف من قلبها، وأحست بأنّ هذا الزواج، الذي كان مليئًا بالتردد، أصبح أخيرًا حقيقيًا بكل معانيه. تلك الليلة لم تكن مجرد لحظة تقارب جسدي، بل كانت لحظة اكتشاف لعمق الحبّ والاتصال الذي نما بينهما ببطء، حتى وصل إلى تلك الذروة التي لا تعرف الحدود.

كانت السماء خارج النافذة مليئة بالنجوم، وكأنها تعكس بريق الحب الذي اكتشفه كلاهما في تلك الليلة.

في اليوم التالي، قررت حيلاء وسلطان عقد اجتماع أخير بين الغجر وأهل القرية. بعد أن تم كشف الخيانة والاتفاق بين برهان والعمدة، كان هناك رغبة مشتركة بين الطرفين في إعادة بناء الثقة.

اجتمع الجميع في الساحة الكبيرة بالقرية. وقف سلطان بجانب حيلاء، وكانت العيون تراقب كل حركة. الرجال والنساء من الغجر والقرية كانوا يراقبون ما يحدث، محاولين استيعاب كل شيء.

قال سلطان بصوت قوي: "لقد مرت القرية بأيام صعبة، وكلنا هنا دفعنا ثمنًا باهظًا. لكن اليوم، نريد أن نضع نهاية لكل هذا الصراع."

أومأ العمدة بصمت، كان يبدو متعبًا ومنهكًا. لقد خسر كل شيء تقريبًا، وكان يعرف أن أيامه قد ولت: "نعم، يجب أن نعيد بناء ما دُمر، ونجد طريقًا للسلام."

كانت حيلاء تشعر بأن شيئًا ما ليس على ما يرام. كانت نظرات الأسد، الرجل الذي كان دائمًا يعتبر حاميها وحامي سلطان، غريبة بعض الشيء. كانت عيناه تتحركان بين الحاضرين بحذر، وكأنه يترقب شيئًا.

ثم، في لحظة غير متوقعة، اندفع الأسد للأمام. كان يحمل خنجرًا مخفيًا تحت ردائه، وبحركة سريعة ومفاجئة، غرس الخنجر في قلب حيلاء.
في نفس اللحظة كانت هناك سكين تمر على عنق العمدة، فأغرقته الدماء في اتفاق ضمني بين الأسد وقاتل العمدة الذي تمكن منه القرويون وثبتوه أرضًا

تشنجت حيلاء وسقطت على الأرض، وملأت الصدمة عيون الجميع. صرخت نادية من بعيد وهي ترى ما حدث، بينما أسرع سلطان نحو حيلاء. لم يكن يصدق ما حدث.

"الأسد! لماذا؟" صرخ سلطان، عيناه تمتلئان بالغضب والدموع.

ابتسم الأسد ابتسامة باردة وقال بصوت هادئ: "لطالما أردت السلطة وقد حان وقت انتهاء هذه اللعبة."

تجمعت الحشود حول المشهد، كانت الصدمة تسيطر على الجميع. العمدة غارقًا في دمائه يلفظ أنفاسه الأخيرة، بينما فارس قد اندفع نحو الأسد بحركة سريعة وتمكن من تجريده من سلاحه، وفي مواجهة عنيفة، انتهى الأمر به بإيقاع الأسد أرضًا، وأخذ خنجره ليضعه على عنقه.

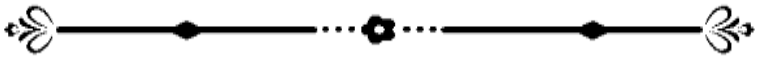

نظرت حيلاء إلى سلطان بعينين مليئتين بالألم، ثم همست: "كن قويًا يا سلطان. لا تدعهم يسلبونك قوتك."

تلاشت أنفاسها الأخيرة بين يدي سلطان، وكان قلبه يشتعل بالغضب. وقف سلطان ببطء، عيناه تتوهجان بالغضب "السلطة التي كنت تريدها يا أسد... لن تحصل عليها."

صمتت الساحة، وكان الجميع يترقب ما سيحدث. لكن فارس، رغم الغضب الذي كان يملأ قلبه، قرر عدم قتل الأسد.
أبعد سلطان عنه وألقى الخنجر بعيدًا وقال بصوت حازم: "لن تكون قاتلًا مثلهم...
ونظر إلى الأسد وقال له: لن أقتلك ولكني سأتركك للغجر الذين أفسدت حياتهم على مدى سنوات حكمك لهم.

نظر الأسد إليهم بدهشة، لم يكن يدرك بعد أنه خسر.
أسرع الغجر نحو الأسد وقيدوه، لتتم محاكمته هو وشريكه أمام الجميع على خيانته.

....

كان الصباح الأول بعد موت العمدة وحيلاء مختلفًا. بدت القرية كأنها تتنفس لأول مرة منذ سنوات، فالهواء كان محملًا برائحة التحرر، وأشعة الشمس تتسلل عبر أشجارها كأنها تعلن عهدًا جديدًا.

على أطراف القرية، وقف الغجر، محملين بأمتعتهم وأغانيهم الحزينة. كانت وجوههم متجهة نحو الطريق البعيد، الطريق الذي سيعيدهم إلى بلدهم. لم تكن العودة اختيارًا سهلًا، لكنّها كانت ضرورة؛ لقد انتهى زمن الفوضى، وحان وقت استعادة التوازن.

في الساحة الكبرى، تجمّع أهل القرية ليشهدوا الفجر الجديد الذي أشرق بعد الظلام الطويل. صعد فارس إلى المنصة الخشبية القديمة التي طالما وقف عليها العمدة، ولكن هذه المرة، لم يكن هناك استبداد أو خوف.

إلى جواره، وقف سلطان، يضع يده على كتف أخيه في إشارة دعم لا تخطئها العين. وحوله أخواه في الرضاعة، وقفا يراقبان المشهد بعيون تملؤها الآمال.

بدأ فارس حديثه بصوت مفعم بالقوة والإصرار:
"اليوم، نغلق صفحة الظلم ونفتح صفحة جديدة. هذه الأرض لنا، لأبنائنا، وللأجيال القادمة. لن نسمح أن تتحول قريتنا مرة أخرى إلى مكان يحكمه الخوف. من اليوم، نبدأ عهدًا جديدًا... عهدًا قائمًا على الحق والعدل."

تصاعدت الهتافات من الجمع، ارتفعت كأنها أغنية منسية، تتردد بين التلال المحيطة كصدى يحاول تحرير الماضي من أغلاله. كان المشهد أشبه بلحظة ميلاد جديدة، حيث الأرض تفتح قلبها لتستقبل عهدًا لا يشبه ما سبق.

وسط الجمع، وقفت عيون سلطان تبحث عن شيء، شيء لا يراه سواه. فجأة، ظهرت أفعى بين الجموع، تزحف ببطء كأنها جزء من الأرض التي وُلدت منها. لمحها سلطان، وتسللت إلى شفتيه ابتسامة خفيفة. كانت تلك الأفعى مألوفة، تذكر أنها كانت تظهر له من وقت لآخر، في أوقات لم يدرك حينها معناها.

لكن اليوم، عرف. لم تكن تلك الأفعى سوى تجسيدٍ لأمه، غزل. كأنها كانت تعود من الغياب لتطمئن عليه، تظهر له وحده، تخبره بصمتها أنها لم تتركه أبدًا.

تراجع جسد الأفعى بين الظلال، كأنها تُسلم الأمانة وترحل. ظل سلطان شاردًا، يحدق في المكان الذي اختفت فيه، كأنه يرى الزمن نفسه ينسحب، يتركه لمصيره الجديد.

أدار وجهه نحو أخيه بالدم، وأخويه بالرضاعة. تقدم نحوهم بخطواتٍ ثابتة، واحتضنهم كأنّ ذلك الرباط الذي جمعهم قد صُهر من نارٍ أبدية لا يطفئها إلا الموت.

في تلك اللحظة، أدرك سلطان أنّ ما كان مجرد وشم على جبهة الليل، أصبح علامة لا يمحوها الزمن، علامة تعلن بداية عهد جديد، أقوى من الظلم، وأطهر من الماضي.

****

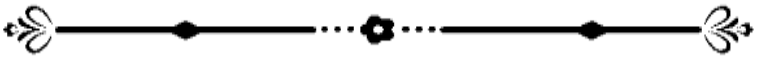

محتويات الرواية

إهداء..... 5
نبوءة برهان 8
البشرى..... 33
الولادة 35
تضحية غزل..... 43
صراع الأقدار..... 63
عودة حيلاء..... 73
الأسد..... 81
لقاء وحنين 91
وداع وجراح 96
كشف الخيانة داخل كفر الغجر 118
فارس ونادية – الحب الذي نما وسط الفوضى 145
محتويات الرواية 154

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع